مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:35 العدد 01 السنة:2021 الصفحة:866–917 تاريخ النشر:27–06–2021

صورة النبي صلى الله عليه وسلم عند واشنطن إرفينغ من خلال سيرته بين المرجعية الإسلامية والتأثيرات الغربية

The image of the Messenger Muhammad(PBUH) , through his biography in washington Ivring between the Islamic reference and the Western influences

د. منصف شلي
moncef.chelli25@gmail.com
جامعة الإخوة منتوري – قسنطينة 1

تاريخ الإرسال: 05–01–2021 تاريخ القبول: 19–05–2021

الملخـــص:

يهدف هذا البحث إلى استيضاح صورة نبي الإسلام محمد –صلى الله عليه وسلم– عند الأديب الأمريكي واشنطن إرفينغ من خلال كتابه (محمد وخلفاؤه)، وكيف كان لمصادر المؤلف المختلفة ومرجعياته المتنوعة بين العربية والغربية دورا في تشكيل هذه الصورة، إضافة إلى رؤيته الخاصة والمستقلة.

الكلمات المفتاحية: صورة النبي – واشنطن إرفينغ، المرجعيات الغربية– المصادر العربية.

Abstract:

This research aims to clarify the image of the Prophet of Islam Muhammad (may Allah bless him and grant him peace) through the book of the American writer Washington Irving "Muhammad and his successors", and how the author's various sources and his various references between Arabic ones and

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 01 السنة: 2021 الصفحة: 866–917 تاريخ النشر: 27–06–2021

Western ones played a role in shaping this image, in addition to his own and independent vision.

Keywords: Portrait of the Prophet - Washington Irving, Western references - Arab sources.

المقدمـــة:

تهدف هذه الدراسة الموسومة (صورة النبي صلى الله عليه وسلم عند واشنطن إرفينغ من خلال سيرته بين المرجعية الإسلامية والتأثيرات الغربية) إلى الكشف عن صورة النبي الأكرم –عليه السلام– في الأدب الأمريكي من خلال مدونة إرفينغ (1859–1783 –Washington Irving) "محمد وخلفاؤه".

ولم تكن سيرة المصطفى–صلى الله عليه وسلم– أن تُكتب وصورته لتتشكل في الأدب الأمريكي –في حدود علمنا– قبل كتاب إرفينغ هذا.

ولهذا فقد وقع اختيارنا على هذا الأديب والمؤرخ والدبلوماسي صاحب الأصول الأسكتلندية والذي كانت له رؤيته الخاصة والمميزة حول التراث العربي والإسلامي والشرقي عامة، وعن الإسلام ونبي الإسلام خاصة. وكذلك بما تكتسبه كتاباته من طابع موضوعي إلى حد بعيد مقارنة بـــسابقيه أو معاصريه من الكتّاب أو الأدباء والمستشرقين العربيين الذين كتبوا عن الإسلام ونبي الإسلام، أمثال الإنجليزي بوكوك (1691–1604 E.pococke) وهوتينغر (1667–1620 Hottinger) وروبرت بيلارمين (1621–1542 Robert Billarmin) ومن نحا نحوهم وسارع على نسقهم في الكتابة عن هذا الموضوع. ممن كانت كتاباتهم تتراوح بين الجهل التام والعصبية المقيتة أو بين الإسفاف الشنيع والموضوعية المشكوك فيها.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 01 السنة: 2021 الصفحة: 866–917 تاريخ النشر: 27–06–2021

أضف إلى ذلك فإن ما صنعه إرفينغ في كتابته عن سيرة النبي محمد صلى الله عليه وسلم يكتسي أهمية بالغة بوصفه صادرا من لدن قامة سامقة في سماء الأدب الأمريكي والعالمي ناهيك عن كونه رائدا من رواد الرومنتيكية خلال القرن التاسع عشر.

وقد عرض واشنطن إرفينغ في كتابه هذا فصول السيرة النبوية مركزا على الأحداث المهمة والمنعطفات الجسام التي شكلت محطات مفصلية أو محورية في حياته –صلى الله عليه وسلم– وبعد مماته وفي تاريخ الإسلام ككل.

وإدراكا من المؤلف لعالمية الدعوة المحمدية ورسالة الإسلام، وإيمانا منه بأن هذا المسار الحافل للرسول –صلى الله عليه وسلم– بذل إرفينغ جهدا كبيرا لم يألُ فيه، معتمدا على مصادر غربية رائجة آنذاك تناولت سيرة المصطفى –صلى الله عليه وسلم– وجوانب من حياته وما يتصل بذلك من سبب، كتبت في عصر المصنف أو قبله بنحو قرن أو قرنين من الزمان، حيث استقى منها مادته وكانت مصدرا لمعلوماته. وكان لزاما عليه وهو المثقف الكبير والباحث الطّلعة أن يعود إلى مظانّ السيرة التي في المصادر العربية والإسلامية، خاصة ما كتبه ابن إسحاق وأبو الفدا إسماعيل عماد الدين الدمشقي صاحب حماه في سيرتيهما عن النبي –صلى الله عليه وسلم– كما ثلّث بمصادر أخرى متفرقة.

وتأسيسا على ما سبق أمكن لنا أن نتساءل عن الأصول والمرجعيات التي تنازعت نصوص السيرة النبوية عند واشنطن إرفينغ؟ هل هي الأصول العربية؟ أم المرجعيات الغربية؟ أم أن هناك مصادر وتأثيرات أخرى؟ وكيف صنع إرفينغ رؤيته الخاصة ومنهجه انطلاقا من كل هذه الأصول والمرجعيات؟ وما أثر ذلك في تشكيل صورة النبي –صلى الله عليه وسلم– عنده؟

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 01 السنة: 2021 الصفحة: 866–917 تاريخ النشر: 27–06–2021

وانطلاقا من كل هذه الإشكالات وللإجابة عن هذه التساؤلات ارتأينا أن نسير بالبحث وفق العناصر الآتية المذيّلة على ديباجته:

1. واشنطن إرفينغ الكاتب الدبلوماسي الأديب.
2. وصف مدونة إرفينغ (محمد وخلفاؤه) ومنهجه.
3. المصادر الغربية لسيرة الرسول –صلى الله عليه وسلم– عند إرفينغ.
4. المصادر العربية والإسلامية لسيرة الرسول–صلى الله عليه وسلم– عند إرفينغ.
5. مصادر أخرى.
6. مصادر إرفينغ ودورها في تشكيل صورة النبي –صلى الله عليه وسلم– عنده.

1– واشنطن إرفينغ: الكاتب، الدبلوماسي، الأديب:

ما جمّشت الرومنتيكية في أمريكا بأحسن من واشنطن إرفينغ، الذي فلسف التاريخ والسير وخلع عليهما من ألوان تعابيره الجميلة وأسلوبه البديع، وقبل ذلك فقد قال في حقه ستانلي ويليامز: "إن أمريكا كانت تترقب أديبها المنتظر فالأنوار مسلطة والحضور مجتمعون"[1].

أبصر إرفينغ النور في مدينة نيويورك عام (1783م) لأب اسكتلندي وأمٍّ إنجليزية وهو سليل أسرة هاجرت قبل مولده بأكثر من عشرين سنة. ولا يعنينا من تفاصيل حياته

[1]– فورستر وفوك: ثلاثة قرون من الأدب، اختاره وأشرف على ترجمته: جبرا إبراهيم جبرا وآخرون، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين للطباعة بنيويورك، بغداد، دت، ج1، ص158.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 01 السنة: 2021 الصفحة: 866–917 تاريخ النشر: 27–06–2021

الكثيرة والمعقدة– والتي أسهب في تأريخها آخرون–[1]

ومن تجواله وتطوافه بكثير من البلدان الأوربية، سوى أن هذه التجارب ستفرز من عصارتها أديبا مميزا ومؤرخا فنانا.

فقد درس الحقوق وانتسب للصحافة وبرز في الأدب والثقافة والسياسة، وعرف قصّاصا جوّالا في بلدان مثل: هولندا، إنجلترا، فرنسا وإسبانيا التي مكث فيها مرتين إحداها سفيرا لبلاده في مدريد.

وكان الرجل إلى جانب ذلك مولعا بالأساطير والقصص الشعبية وحكايات ومغامرات الشخصيات التاريخية والشهيرة، وكذا التاريخ والمدنيات المتعاقبة حتى ركّب ذلك طباعا فيه.

فقد كتب (تاريخ نيويورك) و(مسودات) و(حكايات رحالة) و(حكايات الحمراء) وقد أعانته رحلته إلى إسبانيا في دراسة الحضارة العربية والإسلامية في الأندلس وفي المشرق، فوسع في ثقافته، وكان من حسن حظه أن اطلع على نفائس المخطوطات العربية في مكتبات إسبانيا العريقة حينما كان سفيرا بها ممّا أكسبه نظرة موضوعية في الحكم على كثير من قضايا التراث العربي والإسلامي، بخلاف ما دأب عليه كتّاب الغرب حول تراث العرب والمسلمين.

[1]– المصدر نفسه: ص158 وما بعدها/ الطاهر أحمد مكي: في الأدب المقارن، دراسات نظرية وتطبيقية، دار المعارف. مصر، ط3، 1997م– ص109–132. في الفصل الموسوم (الأندلس في الأدب الأمريكي، واشنطن إرفينغ بين أبهاء الحمراء وجنة العريف)./ وانظر كذلك ما كتبه الأستاذ إسماعيل العربي في مقدمته لترجمة كتاب إرفينغ: سقوط غرناطة آخر الممالك الإسلامية بالأندلس، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1989– ص 11 وما بعدها.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 01 السنة: 2021 الصفحة: 866–917 تاريخ النشر: 27–06–2021

كان إرفينغ كاتبا مرموقا وأديبا مجوّدا، وقد وُصف بأنه "ناقل الثقافة من العالم القديم إلى العالم الجديد"[1] وقد أعانته ثقافته الواسعة بالتاريخ والحضارات وتعدد لغاته وتجاربه في فهم أعمق لحقائق التاريخ وفهم أسرار المدنيات القديمة والحديثة، هذا ما جعله صاحب رسالة "مخلصا لواجبه كفنان" [2]

وفي الربع الأخير من حياته، وهي مرحلة النضج الفني والفكري والسياسي حيث صقلت تجاربه ونضجت مواهبه "تحول نحو التاريخ وتدوين السير، كما كان ذلك واضحا في كتاباته عن تاريخ الحدود وسيرة كل من (أوليفر كواد سميث) و(جورج واشنطن).."[3] وتأتي سيرة المصطفى عليه السلام في هذا الإطار.

وفي هذه الفترة "غادر مرة أخرى سفيرا في إسبانيا، وبعد أن قضى ثلاث سنوات في هذا المنصب استقر نهائيا في عزلته في (سانيسايد) قرب (تاري تاون) على ضفاف نهر الهدسن حتى قضى بقية حياته."[4]

أما آثاره إضافة إلى ما ذكرناه: سيرة النبي العربي مذيلة بخاتمة لقواعد الإسلام ومصادرها الدينية (1849). وفتح غرناطة في نحو (650) صفحة سنة (1859) وتاريخ فتح غرناطة في (492) صفحة سنة (1905) وأوراق إسبانيا مستخرج من مجلة الثقافة الإسلامية في (568) صفحة ومطبوع في فيلا دلفيا.[5]

---

[1]– إسماعيل العربي: مقدمة كتاب الحمراء، ص16.

[2]– فورستر فوك: ثلاثة قرون من الأدب، ج1، ص158.

[3]– المصدر نفسه، ص116.

[4]– المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[5]– نجيب العقيقي: المستشرقون، دار المعارف، مصر، ط3، 1964، ص992./ يحيى مراد: معجم أسماء المستشرقين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1425ه/ 2004م، ص120.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 01 السنة: 2021 الصفحة: 866–917 تاريخ النشر: 27–06–2021

2- وصف مدونة إرفينغ (محمد وخلفاؤه) ومنهجه في الكتاب:

يجب أن نحدد في البدء عمل إرفينغ هذا من خلال تعدد عناوينه في مختلف الطبعات والترجمات، فقد صدر عام (1849) بعنوان (سيرة النبي العربي مذيلة بخاتمة لقواعد الإسلام ومصادرها الدينية)[1] وقد صدر هذا الكتاب بالعنوان نفسه في مدريد بترجمة إسبانية عام (1964)[2] .

أما النسخة الإنجليزية التي صدرت عام (1849م) فقد حملت العنوان الآتي (محمد وخلفاؤه) [3].

وقد صدرت النسخة الفرنسية للكتاب في باريس (1865) بعنوان (حياة محمد) حيث قام بترجمتها عن الإنجليزية (هنري جورج) بعد أن أسقط مقدمة المؤلف وصنع مقدمة مستحدثة للكتاب. [4]

وقد اعتمدنا في بحثنا هذا على النسختين معا: الإنجليزية والفرنسية. أما النسخة العربية للكتاب فقد قام بترجمتها الباحث هاني يحيى نصري مع إعداد مقدمة طويلة جدا صبّت في سياق الموضوع، وهوامش مثقلة بتخريجات ومقارنات صنعها المترجم بين نصوص إرفينغ ونصوص ابن كثير وهيكل[5]

[1]- نجيب العقيقي: المستشرقون، ص992.

[2]- يحيى مراد: معجم أسماء المستشرقين، ص120.

[3]- WASHINGTON IRVING: Mahomet and His Successors, with frontis piege, New York and, London, the co-operative publication society in- 9.1849

[4]- WASHINGTON IRVING: Vie de Mahomet, traduit de l'anglais par: Henry Georges, Paris, librairie internationale, 1865.

[5]- واشنطن إرفينغ: محمد –صلى الله عليه وسلم – ترجمة ومقارنة: هاني يحيى نصري، هوامش ومقارنات بين إرفينغ وابن كثير وهيكل، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء بيروت ط1، 1999.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 01 السنة: 2021 الصفحة: 866–917 تاريخ النشر: 27–06–2021

ورغم الجهد الكبير الذي بذله المترجم العربي من خلال تخريجاته وتعليقاته ومقدمة الضافية، إلا أنه خرج عن الأصل في كثير من أجزاء الكتاب وفصوله.

بدءا من تحوير عنوان الكتاب، إلى بعض الكلمات والعبارات التي يستقيم معناها بين اللغة المصدر والهدف، وقد نتفهمه من خلال إسقاطه لبعض التعابير والتعليقات غير المناسبة لمقام النبوة والسيرة العطرة، ولكنها تحرمنا من هذا الوجه رؤية الكاتب وتصوره الحقيقي اتجاه عديد القضايا ذات الشأن.

ويشتمل الكتاب في طبعته الإنجليزية على قسمين يضمّان تسعة وثلاثين بابا، كل باب منها يحتوي على جملة من الفصول المتعلقة بالسيرة النبوية وأحداثها وأهم القضايا المتعلقة بها، وبحياة النبي – صلى الله عليه وسلم– حتى وفاته. حيث بلغت جملة صفحات الكتاب بقسميه خمسة وتسعين صفحة، اشتمل القسم الأول من الكتاب على مقدمة المؤلف (préface) ثم الفصل الأول بعنوان (مقدمة تمهيدية أو تنويه تمهيدي حول العرب والجزيرة العربية)[1] و كان القسم الثاني بمقدمة أخرى غير الأولى.[2] ويبدأ الفصل الأول من القسم الثاني بانتخاب الخليفة أبي بكر بعد وفاة النبي – صلى الله عليه وسلم – سنة (632 م)[3]

وكانت النسخة الفرنسية في حوالي ثلاثمائة وستين صفحة، حيث صنع المترجم مقدمة أخرى خاصة به، ثم بدأ بترجمة نص إرفينغ من الباب الأول. [4]

[1]– Preliminary notice of arabis and arabes, p1, p17

[2]–IBID, p2.

[3]– IBID, p261.

[4]– Vie de Mahomet: Notice Préliminaire sur L’arabie et Les Arabes, p7 .

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 01 السنة: 2021 الصفحة: 866–917 تاريخ النشر: 27–06–2021

أما النسخة العربية فكانت في حوالي أربعمائة واثنين وسبعين صفحة، استغرقت مقدمة المترجم حوالي ستين صفحة. وكان من عادة كتاب السيرة العرب والمسلمين وكذلك المستشرقين* أن يصدروا أحداثها بفصول تمهيدية عن الجنس العربي وشبه الجزيرة العربية ومكة قبيل أو عشية ظهور الإسلام.

وقد سار واشنطن إرفينغ على هدى هؤلاء وصنع الصنيع نفسه ولكنه انفرد بميزة خاصة حينما كتب مقدمتان منفصلتان للكتاب نفسه بقسميه الأول والثاني. وواضح من عمل إرفينغ هذا أنه كان يستهدف مشروعا تأريخيا كبيرا لمسار الفتح الإسلامي في مختلف مناطق العالم ولهذا "فقد بدأ بدراسة العرب في موطنهم الأول، حينما أصدر كتابه محمد وخلفاؤه، عرض فيه لمولد الإسلام ونشأته وتاريخه حتى عشية فتح إسبانيا، ولكنه وهو الرجل الرومانسي صاحب الخيال المفرط لم يستطع أن يبلغ في كتابه هذا ما بلغه في حكايات الحمراء، ومن ثم لم يحقق ما وعد به كاملا".[1]

أما عن منهجه في الكتاب فقد لخصه في مقدمة شديدة الإيجاز لم تستغرق سوى صفحة واحدة ونصف الصفحة[2] بيّن فيها خطوط عمله ومنهجه في كتابه، و ذكر بأنه لم يضف شيئا جديدا على أحداث السيرة النبوية، وعلى حياة محمد – صلى الله عليه وسلم – معتذرا عن عدم حصول أية إضافة على نصوص السيرة، ومعلّلا ذلك بأنه قد كتب

*– مثل ما صنع المستشرق البلجيكي هنري لامنس (henri lammens–1862–1937) في مؤلفاته: مهد الإسلام (le berceau de l'islam)، مكة عشية الهجرة (la mecque à la veille de l'hégirie) وغيره من الكتاب.

[1]– الطاهر أحمد مكي: في الأدب المقارن دراسات نظرية وتطبيقية، ص129.

[2]– Mahomet and his successors, p1.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 01 السنة: 2021 الصفحة: 866–917 تاريخ النشر: 27–06–2021

خلال سنوات مكوثه بإسبانيا سلسلة من الأبحاث التي تصور (غزو) أو سيطرة العرب والعربية على مسرح الحياة الأسبانية. [1]

وقد ذكر ذلك في مقدمته أنه لم يتابع أوراق عمله الأدبي كما أسماه[2] لانقطاعه عن إتمامه فترة من الزمن – لظروف معينة– حيث عاد لإتمامه وتوسعته حين أزفت ساعة نشره، فأضاف إلى أوراقه ومسودات العمل الأصلي مما عثر عليه من أعمال للمستشرق غوستاف فايل (Dr.Gustav Weil) الأستاذ الموسوعي بجامعة هود لبورغ[3] ويضيف إرفينغ أنه استهدف بكتابه هذا قصة متكاملة بطابع أدبي على سيرة النبي – صلى الله عليه وسلم – العربي بغية نشره في مكتبة (Family.Library) [4]

3– المصادر الغربية لسيرة الرسول عند إرفينغ:

مصادر كل بحث هي قوامه وعماده، عليها المعوّل والمعتمد، وتَظهر قيمة كل بحث ومستواه انطلاقا من قيمة ونوعية مختلف المصادر والمراجع التي شكّلته.

وإذا كان الأمر متعلق بسيرة الرسول – صلى الله عليه وسلم– فللقضية وجه آخر من حيث كونها متعلقة بصدقية هذه المراجع وأصولها الأولى ومظانّها التي تُستقى منها المعلومات.

أما الكتابة عن حياة محمد – صلى الله عليه وسلم – من طرف الآخر المختلف ثقافيا وحضاريا ودينيا، فهي كتابة محفوفة بالمخاطر، وتحمل في طيّاتها كثيرا من المضمرات انطلاقا من المرجعيات الفكرية والدينية التي تأسست عليها هذه الرؤيا.

[1]– IBID, p15, 16.

[2]– IBID, p15.

[3]– IBID, p18.

[4]– IBID, p16.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 01 السنة: 2021 الصفحة: 866–917 تاريخ النشر: 27–06–2021

وللكشف عن حقيقة هذه الرؤيا وجب علينا استنطاق مختلف مصادره ومراجعه التي اعتمدها في التأريخ لسيرته– صلى الله عليه وسلم – وعن رسالته عند الآخر والتي شكّلت منطلقا وموئلا حول هذه الفكرة. ولكن وجب أن نضع مدونة إرفينغ هذه في سياقها التاريخي، حيث جاءت في ظل مناخ فكري واستشراقي غربي محكوم بالعداء والتعصب وتحقير الآخر والحط من كل ما يعلي من شأنه، ويعزّز منعته وقدره واعتباره.

فقد كان سيف الكنيسة حادًّا ومسلّطا على رقاب الكتّاب والمبدعين الذين كتبوا عفوا أو قصدا عن الحضارة الإسلامية، وعن الرسول محمد – صلى الله عليه وسلم– واضعُ اللَّبِنة الأولى لهذه الحضارة، فما تستطيع الكتابات الغربية أن تقدم لنا عن نبي الإسلام ورسالته ؟ وكيف تناول إرفينغ المحاور المفصلية التي صنعت رسالته العطرة؟ وهل سار إرفينغ على اختلاف مصادره ومراجعه في هذا الركب ووِفق هذا التيار؟

يقول المستشرق الألماني غوستاف بيفانموللر عن كتاب واشنطن إرفينغ: "أما حياة محمد التي كتبها واشنطن إرفينغ على أساس مصادر إسبانية وكتاب أبي الفدا لجانييه وكتابات غوستاف فايل فإنها على ما فيها من صياغة براقة ليست لها أهمية علمية "[1]

ترى ما الذي جعل باحثا كبيرا مثل غوستاف بفانموللر يضرب صفحا عن كتاب إرفينغ ولا يوليه أهمية، سوى ما تضمنه من أسلوب أدبي وعبارات لغوية براقة– حسب زعمه– وقد وصف إرفينغ نفسه عمله بأنه أدبي. فلا عجب في ذلك فالرجل أديب في المقام الأول.

بل إن بفانموللر أشار من طرف خفي إلى أن معتمد مؤلفه هو كتاب أبي الفداء لجانييه وكتاب غوستاف فايل، وبعض المصادر الإسبانية، وليس بخاف على كلّ متصفح

[1]– الرسالة المحمدية في المؤلفات الغربية: ترجمة: محمود حمدي زقزوق، مجلة مركز بحوث السنة والسيرة، قطر، العدد الرابع، 1409ه 1989م، ص134.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 01 السنة: 2021 الصفحة: 866–917 تاريخ النشر: 27–06–2021

لمقدمة إرفينغ أنه ذكر هذه المصادر وهؤلاء الأعلام في مقدمة كتابه وقد أشرنا إلى ذلك آنفا.

فلنأت على ذكر أحد هذين الباحثين وما كتباه في حق نبينا – صلى الله عليه وسلم– وكيف تمثّل إرفينغ مصادرهما وما كتباه في سبيل تشكيل رؤيته عن نبي الإسلام.

أ– جان جانييه– (1670–1740م) Jean Gagnier:

مستشرق فرنسي عظيم، وأحد رواد الاستشراق وكبير سدنته، ولد في العاصمة الفرنسية باريس وتعلم في كلية نافارا الشهيرة (Collège de Navarre) ورُسّم قسيسا على يد أسقف مو (Meaux) وصار كاهنا قانونيا على طريقة القديس جنقياف (الحي الخامس في باريس).

وكل المعلومات المتعلقة بجانييه تشير إلى تحوله إلى المذهب الإصلاحي البروتستاني، بعد أن ترك ديره الأول وتزوج ولجأ إلى إنجلترا في مستهل القرن الثامن عشر.

وقد تبوأ مكانه مهمة في المذهب الإصلاحي البروتستاني، بل وتوطّدت علاقته برؤساء الطائفة الإنجليكانية ومنهم رئيس الأساقفة شارب (Charp) وكذلك بعض السياسيين مثل اللورد إستافلر مكسفيلد (1679–1721م) كان جانييه ضليعا في اللغتين العبرية والعربية، إضافة إلى لغته الأم الفرنسية ولغة التكوين والتدريس الإنجليزية، حتى حصل من جامعة كامبريدج على درجة أستاذ في الآداب (MA)كما حصل على نفس الدرجة من جامعة أكسفورد حيث عين فيها أستاذا للغة العبرية واللغات الشرقية [1]

[1]– عبد الرحمن بدوي: موسوعة المستشرقين، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط3، 1993، ص168، 169./ نجيب العقيقي: المستشرقون، ج1، ص 471، 472./ نجيب مراد: معجم أسماء المستشرقين، ص 253.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 01 السنة: 2021 الصفحة: 866–917 تاريخ النشر: 27–06–2021

أما أعمال جانبيه والتي تهمنا في هذا المقام، فقد ترجم سيرة النبي محمد – صلى الله عليه وسلم– التي كتبها أبو الفدا إسماعيل عماد الدين الدمشقي صاحب حماه. (1273–1331م/672هـ–732هـ) والمعروف بالسيرة الحلبية، إلى اللغة اللاتينية، مع تعليقات وخرائط جغرافية مأخوذة عن أبي الفدا والإدريسي وغيرهما [1] ونشر من المختصر في أخبار البشر لأبي الفدا، سيرة النبي متنا وترجمة لاتينية ونشر في أكسفورد سنة (1722م)، ثم نشر المختصر بكامله متنا وترجمة فرنسية (أكسفورد سنة 1723) ومن تقويم البلدان لأبي الفداء، ذكر ديار مصر– أكسفورد (1740).[2]

وشرع في ترجمة كتاب (تقويم البلدان) لأبي الفدا إلى اللاتينية، وكان من المنتظر أن تصدر الترجمة في (160) ورقة، لكن لم يصدر منها سوى (72) ورقة وهي الصفحات الأولى وتشتمل على وصف جزيرة العرب وبداية وصف مصر .[3]

والملاحظ على ما قام به جانبيه من ترجمات لكتب أبي الفداء الثلاثة (سيرة النبي)، (المختصر من سيرة البشر –سيرة النبي–)، و(تقويم البلدان) أنها كتب منفصلة تماما، مع العلم أن كتاب تقويم البلدان هو كتاب جغرافي محض فيه وصف لجزيرة العرب.

وكان من عادة المؤرخين المسلمين في القرون الوسطى أن يصدروا مؤلفاتهم التاريخية بمقدمات جغرافية تصور المكان الذي يكون منطلقا أو مسرحا للأحداث التي يؤرخونها.

[1]– عبد الرحمن بدوي: موسوعة المستشرقين، ص168.

[2]– نجيب العقيقي: المستشرقون، ص472.

[3]– عبد الرحمن بدوي: موسوعة المستشرقين، ص 168، 169.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 01 السنة: 2021 الصفحة: 866–917 تاريخ النشر: 27–06–2021

وهي الطريقة نفسها وبالنصوص نفسها–تقريبا– التي اعتمدها واشنطن إرفينغ حينما عقد في الباب الأول فصلا عن جغرافية الجزيرة العربية والجنس العربي [1] مستفيدا ممّا نقله جانييه مترجما عن كتب أبي الفداء الثلاثة.[2]

وإنّ قراءة فاحصة لنصوص البحاثة جانييه حول سيرة المصطفى–عليه السلام– تعطينا فكرة طيبة عن أصالة عمل الرجل– بغضّ النظر عما ورد في بعض تحليلاته وتعليقاته– مقارنة بأسلافه ومعاصريه ممن كتبوا في هذا الموضوع. ويكفي الباحث الحصيف أن يطّلع على كتابه القيم (حياة محمد– صلى الله عليه وسلم – نقلا عن القرآن والسنة وكبار المؤرخين العرب) والذي صدر في جزئين [3] حتى يدرك قيمة مصادره ومراجعه، فقد أراد " أن يصف بطريقة غير متحيزة–حسب المصادر المتوفرة لديه– ماذا يقول المحمديون (المسلمون) عن نبيهم، وذلك لكي يحافظ على الخط الوسط الصحيح". [4]

هذا وكان المستشرق الألماني غوستاف بفانموللر قد أعاب على جانييه اعتماده على مؤلفات أبي الفداء صاحب حماة (مختصر تاريخ البشر) و(السيرة النبوية) فهما حسبه "سيرة عربية لمحمد حديثة نسبيا" [5] مقارنة بزمن جانييه، فالسنوات التي تفصل بين وفاة

[1]– Mahomet and His Successors, pp15. 16

[2]– سنذكرها في المبحث الموالي أثناء حديثنا عن المصادر العربية لإرفينغ.

[3]– Jean Gagnier: La vie de Mahomet, traduite et compilée de l'alcoran, des traditions authentiques de la sonna, et des meilleurs auteurs arabes, a Amsterdam.

[4]– سيرة الرسول في تصورات الغربيين، ترجمة: محمود حمدي زقزوق، مجلة مركز بحوث السنة والسيرة، قطر، العدد الثاني، 1407ه 1987م ص84.

[5]– المصدر نفسه: ص83.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 01 السنة: 2021 الصفحة: 866–917 تاريخ النشر: 27–06–2021

أبي الفدا وميلاد جانييه لا تتعدى (339سنة). إلا أننا نرى في عمل جانييه مصادر أكثر من مصادر أبي الفدا، فهو يتعدّى في نقولاته إلى ابن هشام وابن إسحاق، وكتب التاريخ الإسلامي عامة، وكتب السنن، وهو ما يعطي لعمله مصداقية أكبر.كما أُخذ عليه اكتفاؤه بترجمة المصادر العربية وترصيف نصوصها ببساطة وبـــجوار بعضها دون أي نقد.[1]

وهو إن رآه عيبا أو انتقاصا لمنهجه، فإن الأمر لدينا مختلف تماما، فالمعلومات المتعلقة بسيرة نبينا– صلى الله عليه وسلم– إنما تؤخذ من مظانّها الأساسية. ونحن لا نكاد نتلمّس الاجتهاد والتحقيق والمنهجية العلمية الصارمة في التأريخ لسيرة نبينا–صلى الله عليه وسلم– بناء على مصادرها الأولى، حتى نجده يفاجئنا بمزاوجته " لتلك التعليقات والخرائط الجغرافية المأخوذة عن أبي الفدا والإدريسي وغيرهما".[2] والتي استهدف بها توضيح خريطة الجزيرة العربية وأماكن الوقائع والأحداث وتوزيع القائل للقارئ الغربي الذي يجهل كل هذه الأمور، وهو ما يُضفي على نصوص السيرة نوعا من التميز، هذا إذا وضعنا في الحسبان أهمية خرائط الإدريسي (من علماء القرن السادس الهجري) صاحب كتاب (نزهة المشتاق في اختراق الأفاق) والتي هي أقدم زمنا إذا ما قارناها بنصوص أبي الفداء (خاصة نصوصه الجغرافية في كتابه تقويم البلدان).

وتمشّيًا مع منهج جانييه في كتابة سيرة نبوية حسب الأصول الإسلامية والروايات العربية، وانطلاقا ممّا وجد في القران والسنة وجوامع كتب السيرة، كانت مصادر جانييه ذخرا مباشرا وغير مباشر استفاد منه إرفينغ في كتابة سيرة المصطفى عليه السلام، سوى

[1]– سيرة الرسول في تصورات الغربيين، ص131.

[2]– عبد الرحمن بدوي: موسوعة المستشرقين، ص168.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 01 السنة: 2021 الصفحة: 866–917 تاريخ النشر: 27–06–2021

ما تميز به إرفينغ من رقي في الكتابة الإبداعية والتي هيّأ لها مادته التاريخية وجعلها سبيلا لمطاوعة كتابته الإبداعية.

وليس من قبيل الصدفة أن يظهر في هذه الحقبة (عصر جانييه) كتاب قيم جاء مدعِّما لخط جانييه في التأليف الموضوعي والإنصاف في حق نبينا الكريم. وذلك هو كتاب (حياة النبي) الذي قام بتأليفه المستشرق الفرنسي بولانفيلييه م1722–1658 (Henri de Boulainvilliers). وقد يكون له تأثير متبادل مع جانييه واتفاق في هذه النقطة بالذات.

فقد كان بولانفيلييه "أول مؤرخ أنصف النبي – صلى الله عليه وسلم– بكتاب عنوانه (حياة محمد) والذي طبع في لندن بعد وفاته سنة (1730م). ويتناول حياة النبي حتى الهجرة فقط، وفيه أبدى إعجابا شديدا بالنبي محمد–صلى الله عليه وسلم– وبالإسلام ومبادئه" [1]

وهذا ما جعل الأستاذ عبد الرحمن بدوي يعتقد بأنه " اعتمد على الأب مراتشي الايطالي (1700–1612م –P.Marracci) وبوكوك الانجليزي (1691–1604م) Edward (– pococke)[2]

بينما يرى الألماني غوستاف بفانموللر بأنه استهدف بكتابه هذا الرد على افتراءات علماء أمثال مراتشي، وبريدو (Humphrey Prideaux 1724–1648) اللذين لم يستطيعا أن يُبصرا في الإسلام أي شيء طيب، وقد مجّد فيه المؤلف مؤسس الإسلام

[1]– عبد الرحمن بدوي: موسوعة المستشرقين، ص 142.

[2]– المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 01 السنة: 2021 الصفحة: 866–917 تاريخ النشر: 27–06–2021

بوصفه واحدا من الحكماء، وأحلّ دينه في جوانب كثيرة في محلّ أرفع من المسيحية المألوفة. [1]

ويكفي القارئ أن يطلع على مقدمة كتابه المركزة والدقيقة حتى يتعرّف على رؤيته اتجاه الإسلام ونبي الإسلام محمد– صلى الله عليه وسلم– الذي وصفه بأنه " مؤسس إمبراطورية شاسعة وأقوى من ممالك المقدونيين (اليونان) والرومان، بل إنه وصف نبيـــّنا بأنه مؤسس ملك العرب"[2] وصانع مجدهم المؤثل.

و لم يكن الأمر الذي دفع هذا الكونت إلى هذا المديح لنبي مكة هو فقط المحبة الخالصة للحقيقة والعدالة، فقد صور نفسه– بمساعدة بعض المؤلفات الأوربية نبيا يرضي حاجة في نفسه، وكان يرى في محمد نبيًّا قام بتمدين شعبه وأنشأ دينا عقليا. [3]

ولهذا فقد ازدرى بولانفيلييه في مقدمته بمسيحيي الشرق الذين أفسدوا الدين، وبممالك الرومان الذين لا يهمهم إلا مصالحهم في الشرق[4]، غير أن الخلل الوحيد في منهج بولانفيلييه هو أنه لم يكن يتقن سوى الفرنسية حيث غاب عنه اللسان العربي وحتى اللاتيني، ولذلك فإننا نعجب من جهة أخرى من سعة معلوماته وتنوع مصادره في التاريخ للسيرة النبوية الشريفة، وكيف أنه تقلّد خطا معتدلا، ورسم صورة جميلة وحسنة عن النبي محمد– صلى الله عليه وسلم– في أدبيات الاستشراق الغربي بشكل عام.

[1] – سيرة الرسول في تصورات الغربيين، ص82.

2– La vie de Mahomet: par le comte de Boulainvilliers, a Amsterdam. Chez P.Humbert (la preface) p5.

[3] – IBID, p2.

[4] – غوستاف بفانمولر: سيرة الرسول في تصورات الغربيين ص82، 83.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 01 السنة: 2021 الصفحة: 866–917 تاريخ النشر: 27–06–2021

وقد كانت آراء جانبية حاضرة على طول مسار البحث عند إرفينغ الذي استشهد في صفحات بحثه وفي فصول كتابه بآرائه واحتج بها، وكانت دليلا هاديا له، إما تعليقا أو ردا، وتعقيبا مثل ما صنع في الفصل الثاني عشر المتعلق (بالإسراء والمعراج).[1]

حينما طرح إشكالية معراج النبي– صلى الله عليه وسلم– وهل تم بالروح أم بالجسد؟ وساق في ذلك جملة من آراء المؤرخين المسلمين، ثم قال: "إنه قرأ جميع هذه الآراء موسعة ومشروحة بطريقة أكثر عند (Gagnier) في كتابه "حياة محمد – Life of Mahomet"[2]

والظاهر أن إرفينغ قد استوعب جميع الآراء المتعلقة بقضية الإسراء والمعراج واستعرض الآراء المُثبتة أو النافية (هل تمّ المعراج بالروح دون الجسد أم بهما معا ؟) عند جمهور المؤرخين المسلمين وكتّاب السير –كما عند الغربيين– وهو موضوع بالغ الأهمية في الدرس الاستشراقي الذي نفى الرحلة الجسدية، وأكّد على الرحلة الروحية التي حصبت بعد نوم النبي – صبى الله عليه وسلم– هذا بالنسبة للمقتنعين منهم فقط، بخلاف البعض الذي أنكر الرحلة جملة وتفصيلا. والظاهر أن إرفينغ كان من جملة المقتنعين بالرحلة الروحية دون الجسدية، فقد استخدم قياسا عقليا منطقيا– لا بتأثيرات الآخرين– في حساب طول مسار الرحلة ذهابا وإيابا متناسيا (المعجزات).

ولكنّ عباراته كانت مهذبة جدا في الإنكار بعيدة عن التجريح والتهكم، مقارنة بما كتبه أعلام المستشرقين والأدباء المتعصبين في هذه القضية.

[1]– IRVING: Mahomet and His Successors, p86.

[2]– IBID, p94.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 01 السنة: 2021 الصفحة: 866–917 تاريخ النشر: 27–06–2021

وفي هذا الفصل نفسه وفي هامش إحدى الصفحات [1] نجده يناقش قضية الإسراء والمعراج مستحضرا رأي مستشرق إنجليزي كبير هو همفري بريدو * (Humphrey Prideaux 1648–1724) الذي خلف بوكوك كرسيا في جامعة أكسفورد، وصنّف كتابا بعنوان (حياة محمد) الذي نشره عام (1697م) مذيّلا بثبت لأهم المصادر العربية والإسلامية في أربعة عشر صفحة والتي استقى منها إرفينغ معلوماته في هذا الكتاب، حيث كانت هذه العناوين متداولة في الأوساط الغربية آنذاك.

ولكن ما يؤسف له حقا، كيف لم تؤثر هذه المصادر العربية الثرية في تبني بريدو رؤية منصفة وموضوعية عن الإسلام وعن نبي الإسلام، فقد كان مسرفا في الغيّ والتعصب ضد الإسلام الذي استخدمه ذريعة لانتقاد الكنيسة آنذاك.

ولا نستبعد اطلاع إرفينغ غلى كتاب بريدو والاستفادة من مصادره ومراجعه مع الحفاظ على الموضوعية في رسم صورة معتدلة عن الإسلام ونبيه تخالف الصورة التي كانت عند بريدو وأضرابه.

وفي الفصل الذي صنّفه بريدو بعنوان (voyage nocturne au ciel) حول الإسراء والمعراج [2] اعتمد فيه على عدة مراجع بالأجنبية وكذا بعض الروايات العربية مثل: البخاري وتفسير الزمخشري (538هـ/1292م) الموسوم بالكشاف، وكذا تفسير

---

[1]– IRVING: Mahomet and His Successors, p119

*– ترجمته عند عبد الرحمن بدوي: موسوعة المستشرقين، ص107 وما بعدها/ نجيب العقيقي: المستشرقون ص 470، 471.

2– La vie de Mahomet, ou l'on decouvre amplement la virité de l'imposture, Ppr M. Prideaux, Amsterdam chez George Gallet. 1698, pp54-68

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 01 السنة: 2021 الصفحة: 866–917 تاريخ النشر: 27–06–2021

البيضاوي عبد الله بن عمر (685هـ/1292م) الموسوم (أنوار التنزيل وأسرار التأويل). إضافة إلى القران الكريم. [1]

وقد تحدث إرفينغ كذلك في الفصل المتعلق بالإسراء والمعراج عن مختلف الروايات كما وردت في القران الكريم، إضافة إلى البخاري و(أبو الفدا) وغيرهما. مما نرجّح فرضية اطلاع إرفينغ على كتاب بريدو، بل والعودة إلى مصادره ومراجعه كلها، ليس في قضية المعراج فقط بل وفي كل الكتاب.

وسوف نصادف مراجع أكثر عمقا وتنوعا عند بريدو مقارنة بمؤلفي عصره، فقد حضرت كتب مثل: تاريخ الجنابي مصطفى بن السيد حسن الرومي (999هـ)[2]، وأبو الفتح الشهرستاني المروزي (479هـ–548هـ/1086–1153م) والغزالي[3] إضافة إلى (أبي الفدا)[4] وابن الأثير [5] وأمثالهم من علماء الإسلام.

وبالتالي فإننا نعتقد جازمين باعتماد إرفينغ مصادر الرجلين جانييه وبريدو مع اختلاف نظرتيهما حول الإسلام وسيرة الرسول–صلى الله عليه وسلم– فقد صرَّح بذكر الأول وغاب عنده ذكر الثاني.

ومالنا نذهب بعيدا وقد صدّر بولانفيلييه كتاب جان جانييه (حياة محمد) بمقدمة عبرت عن روح المؤلفين معا. حيث اطلع عليها إرفينغ في حكم المؤكد، مادام كتاب

1– Ibid. p54
2– Ibid, p9
3– Ibid. p35
4– Ibid, p37, 3, 7.
5– Ibid, p37

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 01 السنة: 2021 الصفحة: 866–917 تاريخ النشر: 27–06–2021

جانبيه أحد مصادره الأساسية، وقد بدأ بولانفيليه تصديره للكتاب بعنوان مميز حيث يتم تفنيد التناقضات المقدمة أو المطروحة.[1]

ب– غوستاف فايل (Gustav–Weil –1889–1808):

كان المستشرف الألماني ذو الأصول اليهودية غوستاف فايل أحد المصادر الأساسية لعمل واشنطن إرفينغ (محمد وخلفاؤه)، فقد كانا متعاصرين ورغم أن إرفينغ قد سبقه إلى الميلاد بنحو خمسة وعشرين سنة، وإلى الوفاة بنحو ثلاثين عاما، فإن فايل يعدُّ عمدة إرفينغ في مدونته السالفة.

لقد كانت مصادر غوستاف فايل ومؤلفاته حول الإسلام والرسول– صلى الله عليه وسلم– بمثابة النبع الثرّ ليس لواشنطن إرفينغ فحسب بل لعديد الأدباء والمفكرين الغربيين الذين خاضوا تجربة الكتابة في عدة المواضيع.

وقد وصفه إرفينغ نفسه في مقدمة كتابه بالعالم الباحث، وكان ضليعا في اللغات (الفارسية، التركية، السريانية، الفرنسية، الألمانية)، وقد أتقن العربية التي تعلمها خلال إقامته في الجزائر ومصر خاصة، وكذلك إستنبول التي استفاد من مكتباتها واطلع على كثير من المخطوطات التي حُرم منها أسلافه ومعاصروه من المستشرقين.

ورغم كل هذه المصادر والسعة الثقافية فقد خانته الموضوعية، حيث عرف تحاملا كبير وتعصبا مقيتا ضد الإسلام والرسول – عليه الصلاة والسلام– ويمكن أن نذكر في هذا المقام بعض من مؤلفات فايل في هذا الموضوع: (النبي محمد حياته ومذهبه – 1843م)، (مقدمة تاريخية نقدية إلى القرآن–1844)، (ترجمة السيرة لابن هشام–1864)، (الأساطير الكتابية عند المسلمين –1845) جمعها من كتب التفسير وقصص الأنبياء،

[1]–JEANE Gagnier: la vie de Mahomet, preface par le comte de bouléinvilliers. p1.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 01 السنة: 2021 الصفحة: 866–917 تاريخ النشر: 27–06–2021

(تاريخ الخلفاء 1846–1851) المجلد الأول منه يبدأ بحياة النبي محمد وينتهي بسقوط الدولة الأموية، والكتاب هو بمثابة استمرار لكتابه عن حياة النبي، (موجز تاريخ شعوب الإسلام من عصر النبي حتى السلطان سليم الأول–1866) [1]

وبعد إعادة قراءة تاريخ أبي الفدا من جديد [2] كتب لسيرة النبي محمد – صلى الله عليه وسلم– والذي اعتمده إرفينغ ضمن مصادره.

كما اعتمد مصادر سلفه فان همر* (Josef Von Hammer– –1865–1774 Purgstall) (إنسان العيون) لمؤلفه علي الحلبي، وكتاب الخميس لمؤلفه الحسين ديار بكري. والمقاطع (63) التي لخص فيها إبراهيم الحلبي سيرة محمد. [3]

أما الكتابان اللذان ذكرهما بفانمولر فهما من أشهر ما ألّف في السيرة النبوية الشريفة، أولهما: كتاب إنسان العيون في سيرة الأمين والمأمون، للشيخ أبي الفرج نور الدين علي بن إبراهيم الحلبي (975 هـ–1044م) وسيرته المشهورة باسم (السيرة الحلبية[4]) وقد جمعه مؤلفه من كتاب عيون الأثر للحافظ ابن سيد الناس (ت 734هـ) والذي قال عنه أنه أحسن ما ألف في السيرة النبوية ومن سيرة الشمس محمد بن يونس

[1]– عبد الرحمن بدوي: موسوعة المستشرقين، ص 390، 391.

[2]– غوستاف بفانمولر: سيرة الرسول في تصورات الغربيين، ص 132.

*– مستشرق نمساوي كبير ومترجم البلاط الإمبراطوري، أحد كبار الأعلام، وصاحب النظرة الموضوعية إلى الشرق والتراث العربي والإسلامي، وأحسن من مثل دور الوسيط بين الثقافتين الشرقية والغربية/ بدوي: موسوعة المستشرقين ص613 وما بعدها / العقيقي: المستشرقون، ص627 وما بعدها.

[3]– غوستاف بفانمولر: سيرة الرسول في تصورات الغربيين، ص 132.

[4]– حاجي خليفة: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار إحياء التراث العربي، عن طبعة المعارف بإستنبول ج1، ص180.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 01 السنة: 2021 الصفحة: 866–917 تاريخ النشر: 27–06–2021

الشامي (ت 845هـ) وحلّى كتابه بتوزيع همزية البصيري بحسب أحداث السيرة. كما ذكر شيئا من تائية السبكي وأبيات ابن سيد الناس في ديوان (بشرى اللبيب بذكرى الحبيب[1]).

والكتاب الثاني الذي ذكره بفانموللر وكان أحد المصادر الأساسية عند غوستاف فايل ومنه رافدا مهما لواشنطن إرفينغ هو (الخميس في أحوال أنفس نفيس) في السير للقاضي حسين بن محمد الدياربكري المالكي نزيل مكة والمتوفّ بها في حدود سنة (960هـ) والأصح سنة (966هـ/1559م)، وقد اشتمل على مقدمة وثلاثة أركان وخاتمة، من قُبيل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم ثم هجرته ووفاته إلى ذكر الخلفاء الأربعة، ثم يمضي في تأريخ أحداث الدولة الإسلامية حتى جلوس السلطان مراد الثالث على العرش، وقد فرغ من تأليفه سنة (940هـ)[2]

إذن فنحن أمام مادة موسوعية عظيمة ومصادر نفيسة عن سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم بذل فيها فايل جهدا كبيرا في سبيل تحصيلها وقراءتها حتى أمكن لنا أن نقول "إن كتاب فايل يعدُّ أول سلسلة من الكتب التي سيكتبها المستشرقون المحدثون عن سيرة النبي ورسالته"[3]

وتزداد قيمة كتابات فايل حينما نعلم أنه "اعتمد مصادر شرقية جديدة بعد أن قام برحلة إلى غوته (الشاعر الألماني) وفحص كثيرا من المخطوطات القيّمة التي تمتلكهـــا

[1]– علي بن برهان الدين الحلبي: إنسان العيون في سيرة الأمين والمأمون، المطبعة الأزهرية، مصر 1351هـ–1932م، ج1 (مقدمة الكتاب).

[2]– حاجي خليفة: كشف الظنون ج1، ص725.

[3]– عبد الرحمن بدوي: موسوعة المستشرقين، ص391.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 01 السنة: 2021 الصفحة: 866–917 تاريخ النشر: 27–06–2021

المكتبة هناك عن محمد"[1]

ولهذا فقد أضاف إلى جملة تآليفه كتاب (تعليقات جمع فيها عدة مواضيع لمؤلفين تتعلق بأحوال نفسية كانت تنتاب النبي عند نزول الوحي–المجلة الآسيوية– 1842م)[2].

وبعدما عرضنا مؤلفات فايل وجانييه وبحوثهما عن السيرة، أمكن لنا أن نقول أن أعمالهما ومصادرهما قد كانت موردا ومعينا لواشنطن إرفينغ في كتابه (محمد وخلفاؤه) حيث استفاد منها مباشرة أو عن طريق الإحالة على المصادر العربية والإسلامية.

ورغم ذلك فإن نقولات إرفينغ عن غوستاف فايل لم يؤثّر في حكمه عن نبي الإسلام و لم يغير نظرته الموضوعية بل إننا نؤكد على مخالفة إرفينغ لفايل في كثير من قضايا السيرة ورجوعه لمصادر فايل الأصلية. وهو ما نلاحظه في طريقة إرفينغ نفسه ومنهجه في الكتاب، حيث سار على طريق صاحب السيرة الحلبية الذي صرحّ بحذف الأسانيد لطولها حسب ما ذكر في مقدمة كتابه[3] وكذلك فعل إرفينغ في مقدمة كتابه مع الأسانيد وقد أطال صاحب السيرة الحلبية وأسهب في حديثه في آخر الكتاب عن سرايا النبي –صلى الله عليه وسلم– وشمائله وخصائصه وصفاته، وكذلك جعل إرفينغ أواخر كتابه في حديثه عن صفات النبي صلى الله عليه وسلم.[4]

والمتتبع لأجزاء وتضاعيف عمل إرفينغ يجده يصرّح بمصادره الغربية (المسيحية) أحيانا ويخفيها أحيانا أخرى، وهذا خلل منهجي جسيم في كتاب الرجل. في عدم ذكر مصادر معلوماته أو التهميش لها.

---

[1]– غوستاف بفانمولر: سيرة الرسول في تصورات الغربيين.ص132.

[2]– عبد الرحمن بدوي: موسوعة المستشرقين، ص390

[3]– علي الحلبي، السيرة الحلبية، ج1، ص1.

[4]– Irving: vie de Mahomet, pp29-30

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 01 السنة: 2021 الصفحة: 866–917 تاريخ النشر: 27–06–2021

وقد نلتمس له العذر. فعمل الرجل أدبي بالأساس مادته التاريخ والسيرة، وقد صرَّح هو نفسه بذلك في ديباجة كتابه كما أشرنا إلى ذلك آنفا.

ففي الباب الثاني من كتاب إرفينغ[1] وبعد ذكره للأحداث الأولى قُبيل مبعث النبي –صلى الله عليه وسلم– والأمارات الأولى التي دلّت على نبوته، تحدث إرفينغ عن ردود الفعل في الجانب المسيحي، وكيف تطيّر المؤرخون المسيحيون من هذه الدلائل الأولى للنبوة لأنها تهدد ديانتهم وعالمهم، وذكر بأن الكتّاب المسيحيين الأوائل اعتبروا نبوته عليه السلام نوعا من الهرطقة والعداء الصريح للكنيسة دون أن يوضح من هم هؤلاء الكتاب.

ويتكرر الأمر نفسه في فصل آخر حينما يذكر انتقاد المؤرخين المسيحيين لمعجزات الرسول –صلى الله عليه وسلم– مثل: الحمامة والبيضة والمخطوط حيث يعدونها ضربا من الخوارق.[2]

وقد لعبت التأويلات المسيحية دورها في كثير من استقراءات وتفسيرات واشنطن إرفينغ لنصوص السيرة وأحداثها ورغم ذلك فقد احتفظ بآرائه وتصوراته وربما كان القاسم المشترك لكل الدارسين الغربيين هو إنكارهم لمعجزاته –صلى الله عليه وسلم– لكن مع فارق فاصل هو غلبة الطابع العقلي وتوظيف المنطق في الحكم على بعض حوادث السيرة.

ويتفرد إرفينغ في أحايين كثيرة ببعض الآراء التي يعزوها إلى المصادر المسيحية المجهولة والتي يخالف فيها ما اتفق عليه، مثل ما حصل في الباب الرابع عشر أثناء حديثه

[1]– Mahomet and his successors, pp 29-30.

[2]– Ibid, pp 66-67.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 01 السنة: 2021 الصفحة: 866–917 تاريخ النشر: 27–06–2021

عن بناء أول مسجد في الإسلام بعد وصوله –صلى الله عليه وسلم– إلى يثرب حيث ذكر بأن المسجد بني على أنقاض مقبرة نقلت منها الرفاة لهذا الغرض.[1]

وقد تظهر بعض التعابير المسيحية حينما يوظفها إرفينغ في التعليق على أحداث السيرة، مثل ما ذكر عن حادثة شق صدر النبي –صلى الله عليه وسلم– وأن الأطفال ذهبوا سراعا إلى مرضعته حليمة السعدية وأخبروها الخبر وكيف ارتاعت المرأة خوفا من الأذى الذي قد يلحق الطفل من هؤلاء الزوار غير الطبيعيين ومن الأرواح الشريرة، [2] وهي تعابير مألوفة في الديانة المسيحية وتظهر هذه التأويلات المتوارثة من مصادر نصرانية في هذه الحادثة بالذات حينما ذكر أن جبريل عليه السلام هو الذي فتح صدر الرسول صلى الله عليه وسلم بدون ألم وأخرج قلبه ونظفه من مغمز الشيطان وعلّق دم الخطايا الموروثة بالإنسان من أبيه آدم، [3] وهنا نلاحظ أن إرفينغ يوظف عبارات من صلب الديانة المسيحية على الرغم من اعتماده الأصل العربي والإسلامي لهذه الحادثة.[4]

ويذكر واشنطن إرفينغ في أحد فصول كتابه أثناء حديثه عن دلائل نبوته عليه الصلاة والسلام والتي ظهرت في صباه" وأنه قد أخصبها عبر تلاقيه في رحلاته مع المسيحيين واليهود"[5]

---

[1]– Ibid, p106.

[2]– Ibid, p33.

[3]– إرفينغ: محمد –صلى الله عليه وسلم– (النسخة العربية) ص87.

[4]– علي برهان الدين الحلبي: السيرة الحلبية، ص112–115/ البيهقي: دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، وثق أصوله وخرج أحاديثه: عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1408هـ/1988م، ج2، ص5 وما بعدها.

[5]– Irving: Mahomet and his successors, pp 46-47

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 01 السنة: 2021 الصفحة: 866–917 تاريخ النشر: 27–06–2021

ثم يذكر أنه زاد تأثره بورقة بن نوفل "ذي التطلعات الفكرية والإيمان السلس والذي تقلب في الأديان حتى أرسى على النصرانية."[1]

فمن الثابت عند جمهور المؤرخين والمحدثين المسلمين وأصحاب السير معرفة ورقة بن نوفل بالكتب السماوية المتقدمة وأنه قرأ التوراة والإنجيل وتنصّر[2]ولكن تأثير نصرانيته في نبوة محمد –صلى الله عليه وسلم– لم يقل به أحد من المؤرخين فهو لم يؤول سوى ما روي عنه عن نزول الوحي على النبي صلى الله عليه وسلم في غار حراء. ثم ما لبث أن توفي بعدها ولهذا فهذه التفسيرات هي من مخلفات الدرس الاستشراقي.

وفي السياق نفسه فقد أفضت مزاعم المستشرقين التأويلية إلى إرجاع نبوته –عليه الصلاة والسلام– إلى أصول نصرانية وقد كان الفضل –حسبهم– إلى الراهب بحيرى النصراني من بُصرى الشام والذي كشف أمارات نبوته عليه السلام أثناء سفره مع عمه أبي طالب إلى الشام أول مرة وهو ابن اثنتي عشرة سنة.[3]

وقد فتحت قضية الراهب بحيرى أبوابا كثيرة لتأويلات مُضللة حول الأصول النصرانية وحتى اليهودية لرسالة الإسلام التي جاء بها النبي صلى الله عليه وسلم وقد سار إرفينغ باحتشام على هذه الطريق، وهذا بالاتفاق من مخلفات الدرس الاستشراقي. ولهذا فإن واشنطن إرفينغ قد خالف الكثير من مصادره العربية والإسلامية المعتمدة في بحثه.

---

[1]– Ibid, p 47

[2]– البخاري: الصحيح، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط1، 1423هـ/2002م (كتاب بدء الوحي)، حديث رقم (2).

[3]– ابن سعد: الطبقات الكبير، تحقيق علي محمد عمر، مكتبة الخانجي، مصر، ط2، 1434هـ/2012، ج1، ص128–130.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 01 السنة: 2021 الصفحة: 866–917 تاريخ النشر: 27–06–2021

ومن بين التأويلات المسيحية المغلوطة والتي تحدّث عنها إرفينغ دون أن يحدّد مصدرها، الحالات المصاحبة لنزول الوحي على نبينا الكريم صلى الله عليه وسلم، حيث يقول: "إنه وبعد نزول الوحي على النبي –صلى الله عليه وسلم– وبعد رجوعه إلى خديجة اضطرب اضطرابا شديدا كاد يودي به إلى الانتحار"[1]

وهذا محال أن يصدر عن نبي الأمة وهو يخالف ما اتفق عليه جلّ المؤرخين المسلمين الذين اعتمدهم إرفينغ، وحتى المؤرخين المسيحين لم يقل أحد منهم بمحاولة الانتحار، بل أكدوا على الصرع وهو وصف قصدي لجمهرة المستشرقين ممن كتبوا في هذا الموضوع لوصف حالات نبي الأمة أثناء نزول الوحي عليه، بعيدا عن الفهم السليم لظواهر بواطن صحيح الحديث ونصوص السيرة النبوية.

بل إن غوستاف قابل أحد المصادر الرئيسية عند إرفينغ قد كتب بعد جمعه لعدة مواضيع لمؤلفين مسلمين تتعلق بأحوال نفسية تنتاب النبي، وقد ذكرناه سابقا.

فمن خلال تعليقات إرفينغ السابقة نستنشق أنه يحاول تصوير نبي الأمة الإسلامية في صورة الشخص الضعيف الذي لا يستطيع مجابهة شدائد الأمور.

وغير بعيد عن هذه التأويلات المسيحية المغرضة والتي أقرها إرفينغ نفسه هو نصر المسلمين في معركة بدر الكبرى والذي مرده –حسب زعمهم– إلى أسباب طبيعية لا إلى مؤازرة إلهية، فالمسلمون لم يكونوا عطاشا في ذلك اليوم عكس المشركين أو القرشيين كما سماهم، كما أن المسلمين لهم ميزة الأرض المرتفعة والإمداد المائي، بينما نال التعب من القرشيين وأنهكم العطش، وتشتت قوتهم بسبب من رجع منهم.[2]

[1]– إرفينغ: محمد – صلى الله عليه وسلم– (النسخة العربية)، ص118.

[2]– IRVING: Mohamed and His Successors, p118.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 01 السنة: 2021 الصفحة: 866–917 تاريخ النشر: 27–06–2021

ولا شك أن إرفينغ ومختلف المصادر النصرانية التي كتبت عن نصر المسلمين في معركة بدر إنما أرادوا أن يتزعوا صفة القداسة عن معركة بدر بوصفها حدا فاصلا بين الإسلام والكفر وأول انتصار للمسلمين، ومحاولة تصويرها حرب عادية، خضعت لمنطق التخطيط الحربي الجيد وساعدت عوامل عدة على هذا النصر دون تدخل القوى الغيبية (التوفيق الإلهي).

وفي نهاية الباب الثالث والعشرين يطلعنا إرفينغ بأخبار بني قريظة وعن عدم عفوه –صلى الله عليه وسلم –عنهم، بل واستخدام القوة ضدهم وإجلائهم، إنما كان بسبب خيانتهم المتكررة وتآمرهم على الدين الإسلامي وعلى المسلمين. وبالتالي فاتخاذ هكذا إجراء ضدهم من قبل النبي محمد –صلى الله عليه وسلم– هي مسألة يراها إرفينغ متعلقة بقضايا أرضية لا سماوية.[1]

ولا يخفى على القارئ خبث هذا التأويل من خلال إبرازه – صلى الله عليه وسلم– في صورة السياسي الذي يجمع بين اللين والشدة ضد رعاياه وهو من مقتضيات الحاكم الحازم، ومحاولة نزع صفة النبوة وما تتطلبه من رفق ولين وغيرها من الصفات. أضف إلى ذلك فما يصدر عن النبي ما هو إلا وحي يوحى وأوامر إلهية، لا مسائل أرضية كما اعتقد المؤلف.

4– المصادر العربية والإسلامية لسيرة الرسول عند إرفينغ:

بلغت مصادر إرفينغ ومراجعه العربية والإسلامية التي اعتمدها في كتابه (محمد وخلفاؤه) من الكثرة والوفرة والتنوع حدًّا يجعل الباحث يقف مشدوها لتنوعها وقيمتها.

[1]– IRVING: Mohamed and His Successors,, p155.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 01 السنة: 2021 الصفحة: 866–917 تاريخ النشر: 27–06–2021

ونحن نعتقد أن قسما كبيرا من هذه المراجع قد قرأه إرفينغ مترجما إلى الإنجليزية، خاصة أعمال من سبقه من المستشرقين الإنجليز أمثال: بريدو وبوكوك وغيرهما، أو المستشرقين الفرنسيين مثل: جانييه وفايل. فقد صدرت كل الطبعات في إنجلترا وأمستردام وبأكثر من لغة آنذاك، وقد ذكرنا هذا سابقا وأعطينا أمثلة على أعمال هؤلاء.

وقد يكون إرفينغ قرأ قسما من هذه المؤلفات أو أكثرها في لغتها العربية الأصلية والتي نعتقد أنه كان يُتقنها؛ فسنوات عيشه الطويلة في إسبانيا التي مكث فيها على مرحلتين تكفُل له ذلك، فقد كان مقيما في قصر الحمراء يستقرئ النقوش والآثار العربية، ناهيك عن قضاء أوقات طويلة في مطالعة كنوز المخطوطات العربية والإسلامية المتبقية في مكتبة القديس إيزيدور كما ذكر هو نفسه، أو في دير الإسكوريال. إضافة إلى ما يتطلبه عمله الدبلوماسي –بكونه سفيرا– من إتقان أكثر من لغة.

ويمكن لإرفينغ أن يكون قد استفاد من اقتباسات المستشرقين وإحالاتهم وتضمينها كتابه وهي طريقة جيدة وموثوقة في البحث، إذا خضعت لمقياس النقد والتثبت.

أما عن المصادر العربية المعتمدة عنده فقد صرّح بأسماء بعضها، وأحال على بعضها الآخر، كما تكرّر ذكر بعضها أكثر من مرة، والبعض الآخر جاء ذكره شذرا حسب سياق الأحداث.

وعن أعلام المسلمين المعتمدين فقد كانوا في تخصصات شتى مثل: التاريخ، السير، الحديث، الجغرافيا، الطبقات، وقد يجمع الواحد منهم أكثر من تخصص كما هو حال الثقافة العربية والإسلامية في العصر الوسيط والتي تمتاز بطابع الموسوعية والشمولية. وقد

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 01 السنة: 2021 الصفحة: 866–917 تاريخ النشر: 27–06–2021

يذكر أحدهم مبهما دون ذكر اسم شهرته أو كنيته كما فعل مع من أسماه (أحمد بن يوسف)[1]

واعتمد على مؤرخ نصراني واحد كتب تاريخه باللغة العربية، وكان من أعلام القرن الثالث عشر للميلاد وهو أبو الفرج غريغوريوس بن هارون الطبيب الملطي الشهير بابن العبري (1226م–1286م) وهو راهب رومي من ملطية (تركيا الحديثة)، وعنوان كتابه (تاريخ مختصر الدول)[2] كتبه باللاتينية أولا ثم نقله بنفسه إلى اللغة العربية، وكان كتابا قيّما، نقله المستشرق الإنجليزي بوكوك إلى الإنجليزية أو اللاتينية ونشر في أكسفورد عام (1663م)[3] وكان هذا الكتاب أحد المصادر الأساسية للمستشرق بريدو في كتابه (حياة محمد)[4] وهو من مصادر إفرينغ.

وقد توزعت الحقبة الزمنية لأصحاب المصادر العربية عنده ما بين القرن الثاني الهجري مع الواقدي (130هـ–207هـ/823م)[5] وابن إسحاق (80هـ–151هـ/699م–769م) الذي ذكره مضمّنا عن طريق سيرة ابن هشام (ت218هـ/833م) وهما أقدم الكتب المعتمدة في نقولات واشنطن إرفينغ، إلى كتاب ومؤرخي القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، مع مؤلفين مثل: برهان الدين

[1]– IRVING: Mohamed and His Successors, p178.

[2]– حققه وصححه وفهرسه الأب: أنطوان صالحاني اليسوعي، دار الرائد اللبناني، بيروت، لبنان، ط3، 1994م–1415ه

[3]– عبد الرحمن بدوي: موسوعة المستشرقين، ص140.

[4]– M.PRIDEAX: La Vie de Mahomet, p1, 2, 6, 7, 9, 10..

[5]– إرفينغ: محمد – صلى الله عليه وسلم– (النسخة العربية)، ص141.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 01 السنة: 2021 الصفحة: 866–917 تاريخ النشر: 27–06–2021

بن علي الحلبي (975هـ–1044هـ) والحسين ديار بكري (966هـ/1559م) والجنابي مصطفى بن السيد حسين الرومي (ت999هـ) وهو أحدث تاريخ معتمد عند إرفينغ إذا ما احتسبنا تاريخ الوفاة.

وهو في نقله عن مصادره العربية والإسلامية جميعا يصرّح بذكر المؤلف أو صاحب الرأي ومصدر المعلومة أو عنوان الكتاب، وقد يستخدم صيغا عديدة يدلّل بها على هذه المصادر جميعا مثل قوله: المصادر الإسلامية، مصادر التقليد التاريخي، التقديرات التاريخية، المؤرخون المسلمون، المؤرخون العرب، المؤرخون، هذه المصادر، التقاليد العربية، التقليد المحافظ... .

وينفرد أبو الفداء بين مصادر إرفينغ كلّها بالحضور الوافر طيلة مسار كتابه. فقد كان معتمدا عنده وفي جلّ الروايات تقريبا، كما صرّح بذكره مرات عديدة، ولا عجب في ذلك فقد كانت مؤلفات أبي الفداء صاحب حماه حاضرةً دوما في كتابات المستشرقين والأدباء الغربيين الذين كتبوا شيئا عن التراث الإسلامي وعن سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، كما كانت مؤلفات هذا الأمير المثقف في طلائع الكتب المترجمة إلى اللغات الأوربية خاصة اللغة اللاتينية الأم. نظرا لمكانته العلمية والسياسية، ولما تميزت به كتبه من بساطة في الأسلوب والجمع والتوفيق بين الروايات المختلفة، كما كان قريب العهد نوعا ما بأعلام الاستشراق الذين اعتمدوا كتبه في دراساتهم، أمثال بوكوك وبريدو أو قبلهم بقليل.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 01 السنة: 2021 الصفحة: 866–917 تاريخ النشر: 27–06–2021

وبدت معلومات إرفينغ في مستهل كتابه وخاصة في الفصل الأول الذي خصصه للحديث عن العرب وجغرافية الجزيرة العربية، مقتبسة مما كتبه أبو الفداء في كتابه الجغرافي (تقويم البلدان)[1] مقارنة بما كتبه إرفينغ في مقدمة كتابه.[2]

وحينما عرّج إرفينغ على ذكر زوجات النبي –صلى الله عليه وسلم– قارن بين رواية أبي الفداء وغيرها من الروايات فقال: "ذكر أبو الفداء أن زوجاته —صلى الله عليه وسلم– خلال حياته بلغت عشرا، رغم أن مؤرخين آخرين زعموا بأن عددهم خمسا وعشرين."[3]

وواضح أن الكتابات الاستشراقية والأدبية الغربية تصور نبي الإسلام — وحاشاه – رجلا غريزيا، ورغم أن واشنطن إرفينغ سكت عن التعليق حول هذه المسألة، إلا أن إيراده رواية من زعم أن لديه– صلى الله عليه وسلم– خمسا وعشرين زوجة هي مسألة ذات ريب، ولا نعلم من ذكر له هذا العدد في كتب السير العربية.

وتأخذ مصادر إرفينغ في التنوع والثراء حينما يثير مسألة مهمة جدا كان لها شأن خلافي كبير في قضية الخلافة ومن هو أحق بها؟ حينما ذكر استخلاف النبي — صلى الله عليه وسلم – لعلي – رضي الله عنه – في المدينة، وذكر الحديث: " أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي".

[1]– أبو الفداء: تقويم البلدان، طبع بعناية رينود والبارون ديسلان، دار صادر، بيروت، لبنان، دت، عن طبعة باريس الأصلية، ص77 وما بعدها.

[2]– IRVING: Mohamed and His Successors, p7-20.

[3]– IBID: , P235.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 01 السنة: 2021 الصفحة: 866–917 تاريخ النشر: 27–06–2021

دون أن يحدّد مصادره، والأكيد أنه اطّلع على تفاصيل القصة والحديث في كذا مصدر.[1] وإن كان قد ألمح بعض الشيء إلى حق علي في الخلافة انطلاقا من هذه الحادثة، ولكنه لم يخض في المسائل الخلافية التي انجرّت عن هذه الحادثة كشأن بعض المستشرقين.

وتنوّعت مصادره بشكل فعّال في قضية أثارت كثيرا من التساؤلات منذ زمن النبي –صلى الله عليه وسلم– وهي قضية الإسراء والمعراج التي وردت في الباب الثاني عشر من كتابه.[2]

ويبدو أنه استثمر كثيرا من المصادر والمراجع العربية والإسلامية وحتى المراجع الغربية في هذا الموضوع ولخّصها، وحاول أن يتوسط قدر الإمكان كلّ هذه الآراء، وخرج فيما بعد بتصور خاص عن هذه الرحلة السماوية الشهيرة.

وأول ما طرح في هذه القضية من تساؤل، هو هل كانت هذه الرحلة بالروح أم بالجسد؟ واستحضر حديث عائشة –رضي الله عنها– ما فُقد جسد رسول الله –صلى الله عليه وسلم – ولكن أسرى الله بروحه."[1]

---

[1]– إرفينغ: محمد – صلى الله عليه وسلم– (النسخة العربية)، ص141.

والحديث عند ابن سعد: كتاب الطبقات الكبير، ج3، ص21–23./ البخاري: الصحيح، كتاب فضائل أصحاب النبي– صلى الله عليه وسلم– (مناقب علي بن أبي طالب) حديث رقم (3706)./ ابن ماجه القزويني: سنن ابن ماجة، باب فضائل أصحاب =رسول الله صلى الله عليه وسلم، (فضل علي بن أبي طالب) رقم الحديث (121)، حقّق نصوصه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، دت.

الإمام مسلم: صحيح مسلم: الباب (44)، (كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم)، باب (فضائل علي بن أبي طالب)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العلمية، مصر، ط1، 1412ه/1991م، ج4، ص1870–1871، الحديث رقم (30–31–32) وقد روي بطرق مختلفة.

[2]– IRVING: Vie de Mahomet, pp114, 124.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 01 السنة: 2021 الصفحة: 866–917 تاريخ النشر: 27–06–2021

وهذا الأثر رواه محمد بن إسحاق، قال: حدثني بعض آل أبي بكر أن عائشة كانت تقول: .... إلى آخر الأثر كما في السيرة النبوية.[2]

---

[1]– IRVING: Vie de Mahomet, p124.

[2]– عقد أبو الفداء إسماعيل بن كثير –وهو أحد مصادر إرفينغ– فصلا مطولا في اختلاف الروايات حول قضية الإسراء والمعراج في كتابه: السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة، بيروت، لبنان، 1396هـ/1976م، ج2، ص93–112. وقال ابن كثير في تفسيره، وقد ذكر قول عائشة –رضي الله عنها– وكذا قول معاوية بن أبي سفيان –رضي الله عنه–: كان رؤيا من الله صادقة... ثم عقب قائلا: وقد تعقبه أبو جعفر بن جرير الطبري بالردّ والإنكار والتشنيع بأن هذا خلاف ظاهر سياق القرآن، وذكر حشدا من الأدلة في الردّ على من أنكر. ينظر ابن كثير: التفسير، دار الأندلس، بيروت، لبنان، ط2، 1400هـ/1980م، ج4، ص240–280./ السهيلي: الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق عبد الرحمن الوكيل، دار المكتبة الحديثة، دار الكتب الإسلامية، مصر، ط1، 1387هـ/1967م، ج3، ص420 وما بعدها./ وقال القاضي عياض بعد أن ذكر حديث أم هانئ: ما أسري برسول الله –صلى الله عليه وسلم– إلا وهو في بيتي تلك الليلة." وهذا بيّن بجسمه، ينظر: الشفا بتعريف حقوق المصطفى، حققه: عبده علي كوتشك، جائزة دبي، ط1، 1434هـ/2013م، ج1، ص240، رقم (458)./ وقال الطحاوي: والمعراج حقّ وقد أسري برسول الله صلى الله عليه وسلم وعرج بشخصه في اليقظة إلى السماء. ينظر شرح العقيدة الطحاوية، حققه مجموعة من العلماء، وخرج أحاديثه: محمد ناصر الدين الألباني، المكتبة الإسلامية، بيروت، لبنان، ط8، 1404هـ/1984م، ص223 وما بعدها./ وقال الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف في كتابه: تخريج أحاديث وآثار كتاب في ظلال القرآن لسيد قطب، عن حديث عائشة: ضعيف رواه بن إسحاق بسند منقطع، دار الهجرة، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط2، 1416هـ/1995م، ص299.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 01 السنة: 2021 الصفحة: 866–917 تاريخ النشر: 27–06–2021

ويقول إرفينغ في ختام هذا الفصل: " هكذا قدّمنا لك أيها القارئ الأسطورة التي خلقت على رؤية الرسول –صلى الله عليه وسلم– في الإسراء، بإضافات المعراج الجسدي إليها كما وصفت موجزة من أبي الفداء والبخاري وأبي هريرة كمصادر لها وبصياغتها بعد فحصها من شروح وتوسعات (جانيه–GAGNIER) في كتابه (حياة محمد – LIFE OF MAHOMET) والواقع أن عليها تعليقات لا تنتهي في التقاليد (المصادر) الإسلامية بعد اختلاف دكاترة الدين من الفقهاء حولها."[1]

ثم يقول: "وهذا لا يمنع من حصول الرحلة بالرؤيا النبوية الصادقة، وهي كالجسد حسب أحمد بن يوسف الذي نقل شهادة بطريق القدس المسؤول عن كنيسة القيامة آنذاك والتي جاء فيها..."[2]

أما بطريق القدس المقصود فكان مع هرقل في استقبال رسالة النبي – صلى الله عليه وسلم–.[3] ويبقى أحمد بن يوسف هذا المصدر العربي مجهول. فإما أن يكون أحمد بن يوسف هذا قد نقل عن بطريق القدس مباشرة، ولكن هذا مستحيل لعدم وجود ذكر لهذا الاسم في تلك الفترة القديمة التي لم يتبلور فيها فنّ التاريخ بعد.

ولهذا فنحن أمام حتمية معرفة هذا المصدر المجهول الذي استقى منه إرفينغ هذه الفكرة المهمة، والتي ستشكّل قناعة المؤلّف حول هذه القضية بموافقة صاحبها.

وفي هذا الإطار تطالعنا ثلاث شخصيات في التراث العربي، لعلّ أولها:

[1]– IRVING: Vie de Mahomet, p124.

[2]– IRVING: VIE de Mahomet, p125.

[3]– IBID, p125.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 01 السنة: 2021 الصفحة: 866–917 تاريخ النشر: 27–06–2021

. أحمد بن يوسف المصري المؤرخ المعروف بابن الداية (245هـ–340هـ)[1] والذي عاصر الدولة الطولونية وكان أحد كُتّابها، ولكن المتأمل في كتبه التاريخية لا يعثر على بغيته في مؤلفات الرجل وهو ما يـــخرجه من دائرة اعتماد إرفينغ.

أما الكاتبان الآخران فهما على التوالي:

– أبو العباس أحمد بن سنان بن يوسف الدمشقي القرماني (939هـ–1019هـ/1532م–1611م) المؤرخ صاحب كتاب (أخبار الدول وآثار الأول) وهو تاريخ عام الدولة الإسلامية مع مقدمة في التاريخ القديم من أنبياء التوراة إلى ظهور الإسلام وتاريخ الخلفاء الراشدين ويقع في خمسة وستين بابا منذ بدء الكون إلى عام (1008هـ/1599م).[2]

– شمس الدين الشامي أبو عبد الله محمد بن يوسف الدمشقي (ت942هـ) – وهو ما نظنه ونرجحه– صاحب السيرة الشامية وتسمى (سبل الهدى والإرشاد في سيرة خير العباد) وهي مطولة في السيرة النبوية، جمعها من (300) كتاب، وتحرى فيها

[1]– ابن النديم: الفهرست، قابله على أصوله: أيمن فؤاد سيد، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن، 1430-2009هـ، م2/1/ص216./صاعد الأندلسي: طبقات الأمم، تحقيق: حسين مؤنس، دار المعارف، مصر، دت، ص77./ عبد الفتاح فتحي عبد الفتاح: التاريخ والمؤرخون في مصر والأندلس في القرن الرابع الهجري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2004م–1424هـ، ج1، ص138 وما بعدها.

[2]– المحبّي: خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، المطبعة الوهبية، مصر، 1284ه، ج1، ص209، 201./ جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية، دار مكتبة الحياة، لبنان، 1992، ج2، ص320.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 01 السنة: 2021 الصفحة: 866–917 تاريخ النشر: 27–06–2021

الصواب، فجاءت في نحو (700) باب، ويذكر أن السيرة الحلبية هي تلخيص عن السيرة التي تقدمته ولاسيما السيرة الشامية لشمس الدين الصالحي الشامي.[1]

ثم يقول إرفينغ معقبا على قصة أحمد بن يوسف هذا: "فإن الإسراء ممكن أن يكون قد حصل بالروح، لكن القصة ككل وصلتنا بالخبر عبر التقاليد (المصادر) رغم أن هناك تأكيدات لم تحدد تفاصيلها في القرآن، فصارت مجالا واسعا لأساطير المسلمين، وكلما زادت هذه الأساطير، كانت تزداد صفة التكذيب للرسول، التي بدأتها قريش في التراث العربي".[2]

وقد صرّح إرفينغ برأيه في هذا الموضوع، بأن جعل لهذه القصة أصلا في القرآن الكريم، وبأنه يعتقد بحصول هذه الرحلة السماوية عن طريق الرؤيا لا غير، بينما يرى كل تفاصيلها من نسيج دكاترة الفقه الإسلامي كما أسماهم والذين أثروا على نسيجها العام حتى اتسمت بالسردية الخرافية، وصارت تراثا شعبيا شفهيا، وصدقتها الأجيال الساذجة.[3] وهذه القضية عند إرفينغ– كما في بعض القضايا الأخرى– تؤثر على صورة النبي صلى الله عليه وسلم فكثيرا ممّا وضع عليه في الأحاديث والسير عند الشرقيين، أما رؤاه ووحيه قد عد باطلا وغير حقيقي بل هو من قبيل الوهم.

ومع ذلك فإن إرفينغ يقر بنبوته–صلى الله عليه وسلم– وبأن صورته قد تأرجحت بين المدّعين عليه المنكرين لكل ما جاء به وبين مغالين فيه قد أضروا تلك الصورة أحسن مما جملوها، فهو لم يدّع معجزة غير القرآن–أو كما ذكر.[4]

---

[1]– جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية، ص309.

[2]– IRVING: Vie de Mahomet, p126.

[3]–IBID, p118.

[4]– IRVING: Vie de Mahomet, pp235, 236.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 01 السنة: 2021 الصفحة: 866–917 تاريخ النشر: 27–06–2021

وهنا نجد أن واشنطن إرفينغ يؤكد على أن النبوة هي محصلة ضروب من التأمل والعزلة المتدرجة والتحنث والتعبد والصوم والصلوات والخلوات، وهو ما تتأتى للنبي محمد–صلى الله عليه وسلم–حسبه– ممّا أدّى بقواه الجسدية إلى التحرك نحو المطلق والإلهام، فلا داعي البحث في الدوافع المادية لنبي الإسلام فلا فائدة له، وإن لم يقتنع المؤرخ العنيد فليبحث عن أسباب أخرى غير ماديةِ الرسول.[1]

وكأن إرفينغ يستفيد –في تأويل مغلوط– من حديث النبي–صلى الله عليه وسلم– الذي رواه البخاري ومسلم، وفي كتب السيرة وطبقات ابن سعد، وقد أشرنا إليه آنفا: "وحُبِّبَ إليه التحنّث وهو التعبد الليالي ذوات العدد...."

ثم يردف المصنف قائلا: " فإذا كان ما يتعرض له هو أحلام اليقظة نتيجة اضطرابات جسدية بحثوا عنه في كل الاتهامات الممكنة، فالجواب لماذا لا ينتج نفس هذا المرض (المقصود الحالات المصاحبة للوحي) وكل الحالات المشابهة لحالات محمد–صلى الله عليه وسلم– عند الأشخاص قبله وبعده معجزة مثل القرآن"[2]

وهنا نلمح ذلك التناقض الصارخ في كلام واشنطن إرفينغ وفي رؤيته للنبوة. فإذا سلمنا جدلا بصحة ما يقول، فلماذا لا تنتج حالات التعبد والانعزال عن بعض البشر نبوة تشابه نبوة محمد–صلى الله عليه وسلم–.

وهي فكرة مبطنة حول الرسالة السماوية التي أسماها إرفينغ– شأنه شأن غيره من المستشرقين والأدباء الغربيين–(الدين المحمدي) نسبة إلى الشخص الذي وضعه، وهذا ما يجعلنا نقول: إن إرفينغ ارتضى نبيا عربيا لهذا الدين الإسلامي، ساقه كمال دنياه، وبعد شخصيته المتميزة والمستقيمة إلى إشاعة دين جديد وفق نمط تلك الشخصية.

[1]– IBID, p346.

[2]– IRVING: Vie de Mahomet, p346.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 01 السنة: 2021 الصفحة: 866–917 تاريخ النشر: 27–06–2021

ولهذا فهو يقر في ختام كتابه عن سيرة المصطفى، بالنبع الواحد الذي متح منه عيسى عليه السلام والنبي محمد صلى الله عليه وسلم في محاربة الشرك وبنفس المنطق والطريقة.[1]

ويهاجم بالموازاة أطروحات المؤسسة الاستشراقية التي لا ترى في بلاغة ومعجزة القرآن الكريم إلا مواضيع واحدة ومتكررة تعكس تكرار أساليب أناس مختلفين وكتبة مختلفين للموضوع الواحد وبالعبارات المتعددة.[2]

والمتصفح لكتاب (محمد وخلفاؤه) يدرك في غير عناء القيمة المصدرية للكتاب، وجهد صاحبه من حيث مقابلة النصوص وتحقيق الأحداث، ففي المبحث المتعلق بوفاة الرسول– صلى الله عليه وسلم– يقول: "ويخبرنا المؤرخون المسلمون أمثال أبي الفدا والجنابي أن وفاة الرسول كانت يوم مولده بعد أن أكمل عامه الثالث والستين."[3]

والجنابي والمولى مصطفى بن السيد حسن الرومي المتوفى منفصلا عن قضاء حلب سنة (999هـ) مؤرخ عثماني شهير، له تاريخ كبير اشتمل على مقدمة واثنين وثمانين بابا... عنوانه (العيلم الزاخر في أحوال الأوائل والأواخر)، وله (البحر الزخار والعلم التيار في التاريخ) و(الحضيرة الخضرة والحديقة النضرة في التاريخ) وغيرها من المصنفات.[4]

---

[1]– IBID, p347.

[2]– IRVING: Vie de Mahomet, p345.

[3]– IBID, p231.(النسخة الإنجليزية)

[4]– حاجي خليفة: كشف الظنون، ج1، ص291./ إسماعيل باشا البغدادي: هدية العارفين في أسماء المؤلفين والمصنفين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج2، ص436، 437.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 01 السنة: 2021 الصفحة: 866–917 تاريخ النشر: 27–06–2021

وقد رأينا من قبل في حديثنا عن المستشرق بريدو وكيف أنه كان أحد المصادر الرئيسية لإرفينغ، وبريدو نفسه قد اعتمد على المؤرخ العثماني الجنابي في تأريخه لسيرة النبي– صلى الله عليه وسلم– وقد ذكره في عدة صفحات من كتابه.[1] مما يدل على قيمة مرويات هذا المؤرخ الكبير بوصفه واحدا من أعلام التاريخ في القرن السادس عشر الميلادي.

هذه مجمل المصادر العربية والإسلامية التي اعتمدها إرفينغ في كتبه (محمد وخلفاؤه) وقد رأينا تنوعها وتعددها واختلافها وهو ما أكسب كتابه كثيرا من المصداقية من حيث المرويات لا من حيث التأويلات والتفسيرات، وهي مناسبة مهمة نقف عندها بالكلام في هذا المبحث.

5– مصادر أخرى:

رأينا مما سبق مصادر إرفينغ الغربية والعربية والإسلامية وكيف أنها كانت أسا لعمله حول السيرة النبوية، ولكن المطلع على ثنايا كتابه هذا يدرك أن ثمة مصادر أخرى غير التي ذكرنا وهي:

✓ **القرآن الكريم:**

ظل القرآن الكريم مصدرا رئيسا لكل كتابات الغربيين (أدباء، مستشرقين، مفكرين) عن الإسلام وتعاليمه وعن نبي الإسلام، فلطالما استشهدوا بآياته وسوره منذ ظهوره مترجما في القرن الحادي عشر والثاني عشر للميلاد.

[1]– M.Prideax: La Vie De Mahomet,p 46, 80, 85, 95.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 01 السنة: 2021 الصفحة: 866–917 تاريخ النشر: 27–06–2021

وظل الأمر كذلك حتى القرن التاسع عشر، فقد اعتمده كل المستشرقين الذين اتخذهم إرفينغ دليلا وهاديا في دراسته مثل: فايل وجانبيه وبريدو وغيرهم فما يمنعه أن يحذو حذوهم ويسير على هداهم؟

ولهذا فإننا نجده قد جعل من آي القرآن الحكيم وسوره مادة لاستشهاداته ودعما لنصوصه واقتباساته وتفسيراته في أكثر من سبعة وثلاثين موضعا.

وقد أحال في بعض المواضع على آيات القرآن لتعزيز فهم السياق والتأكيد على الحدث، مع تحديد الجزء من القرآن، كما فعل حينما تحدث عن هجرة النبي– صلى الله عليه وسلم– وفداء علي بن أبي طالب له.[1]

أو في اضطهاد المشركين للرسول الكريم، فقد أورد آية من سورة الأنفال ((**وإذْ يكَادُ الذِينَ كَفَرُوا ليُثْبتُوكَ أوْ يَقتُلُوكَ أو يُخْرجُوكَ ويَمْكرُون ويَمكرُ اللهُ والله خَيرُ المَاكِرين**)).[2]

بل إنه يضع بعض التفسيرات كما صنع مع آخر موضع استشهدنا به، أو في قوله تعالى ((**عَسَى الله أنْ يَجْعلَ بَيْنَكُمْ وَبينَ الذينَ عَادَيْتُم مِنْهُم مَوَدّة**))، وقد نزلت في عَرْض أبي سفيان على النبي – صلى الله عليه وسلم– تزويج ابنته له .[3]

وفي قصة أصحاب السبت اليهود من أهل أيلة (EYLA) الواقعة على ساحل البحر الأحمر، حيث كان يسكنها قوم من اليهود ارتدوا عن دينهم وأحلوا يوم السبت لعيد

[1]– IRVING: Vie de Mahomet ,P123.

[2]– IBID, p132.

[3]– IRVING: Mahomet and His Successors, p164.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 01 السنة: 2021 الصفحة: 866–917 تاريخ النشر: 27–06–2021

السمك، فمُسِخ كبارهم إلى خنازير وشبابهم إلى قرَدة، وهي قصة–كما ذكر– يتفرد بذكرها القرآن الكريم[1]، وهي إشارة إلى سورة الأعراف الآيتان–63–165).

وهكذا يستمر إرفينغ بالاستشهاد بآيات الذكر الحكيم في كل فصول وأجزاء كتابه.

✓ **الكتاب المقدس:**

كان الكتاب المقدس بعهديه (القديم والجديد) من المصادر المهمة التي اعتمدها واشنطن إرفينغ، فقد عاد إليه أكثر من مرة مستشهدا، مناظرا، ومقارنا، وأحيانا يأتي منه بما يوافق القرآن الكريم، وقد اقتصر حضور الكتاب المقدس بجميع إصحاحاته في الباب الأول من كتاب إرفينغ خاصة.

فقد تحدث المؤلف عن أن إقامة العرب في صحراء الجزيرة إنما كان تحقيقا لنبوءة إسماعيل–عليه السلام– جدهم الأول، القائل في كتاب جينيس (Lagenese) أو سفر التكوين "ستكون بلد العربي بقفره ضد كل إنسان، وكل إنسان ضده".[2]

وفي الباب الثامن يتحدث عن تلك المحاور والتقاطعات الكثيرة الحاصلة بين الديانات: الإبراهيمية والمسيحية (الأرثوذوكسية) والقرآن الكريم، فالنبي محمد–صلى الله عليه وسلم– هو مخلص الأمة الإسلامية، كما كان المسيح مخلص النصارى في القديم.[3] ويؤكد على المقدس بين الكتب الآتية: الإنجيل، التوراة، المنشا، التلمود، والقرآن[4]، ويؤكد على طابع النبوة المتوارثة منذ إبراهيم– عليه السلام– وأبنائه إسحاق ويعقوب

[1]– IBID, p299. (النسخة الفرنسية)

[2]– IRVING: Vie de Mahomet, p9.

[3]– IBID, p70.

[4]– IBID, p71.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 01 السنة: 2021 الصفحة: 866–917 تاريخ النشر: 27–06–2021

وإسماعيل، والأسباط، حتى زمن النبي محمد –عليه الصلاة والسلام– وأن ما جاءوا به واحد ويستشهد على ذلك بالآية 316– من سورة البقرة (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل).[1]

ولا شك أن إرفينغ قد اطّلع –و هو الباحث الحصيف– على الفصول التي وردت في السيرة النبوية في صفات النبي– صلى الله عليه وسلم– وفي صفاته عند الأحبار[2]، وكذلك على صفاته –عليه السلام– في الإنجيل، والبشارة في الإنجيل[3]، وغير هذا مما يخرج من نطاق بحثنا، مثل حديث إرفينغ عن الديانات الأخرى غير التوحيدية، كما هو حال الكتاب المقدس عند الفرس والمعروف بالأسبتاق[4] وردود سليمان الحكيم على الصائبة والمانوية بقوله: " من المؤكد ظلال كل إنسان بطبيعة جهله بالله..."[5]

كما تحدث إرفينغ عن القديس بولس الرسول (SAINT PAUL) وكيف أنه دعا إلى المسيحية وبشر بها في البلاد العربية، وكيف أن له أتباع في هذه البلاد.[6]

6– مصادر إرفينغ ودورها في تشكيل صورة النبي عنده:

عرفت مصادر واشنطن إرفينغ في كتابه (محمد وخلفاؤه) تنوعا كبيرا يدعو إلى العجب والإعجاب، لما تضمنته من مؤلفات غربية متنوعة لسادة الاستشراق وسدنته

---

[1]– IBID, p69.

[2]– السهيلي: الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، ج2، ص377.

[3]– المصدر نفسه، ص375–376.

[4]– IRVING: Vie de Mahomet ,P20.

[5]– IBID, p21.

[6]– IRVING: Vie de Mahomet, p22.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 01 السنة: 2021 الصفحة: 866–917 تاريخ النشر: 27–06–2021

الذين كتبوا عن سيرة النبي –صلى الله عليه وسلم– وعن نبوته ورسالته، وعن شخصيته الفذّة، أيا كان توجه هذه الكتابات، وكذا لما تضمنه مصنفه هذا من فرائد ودرر المصادر العربية والإسلامية في هذا الشأن.

ناهيك عما أضيف من مصادر أخرى اقتضاها السياق والمقام من باب الاستشهاد وعقد المقارنات لتبيان الاتفاق أو الاختلاف حول مسائل معينة.

واحتاجت هذه المعلومات والمصادر المتضافرة كلها إلى رؤية الكاتب، وإلى أسلوبه الأدبي المرن لتُصهر على طريقته، وقد كان لكل ذلك أثر كبير في تشكيل صورة نبي الإسلام عند واشنطن إرفينغ بمجملها الآتي:

- صور إرفينغ النبي محمد–صلى الله عليه وسلم– بوصفه رسولا نموذجيا يحتذى به–على الأقل– عند أهل ملته، وأن سيرته وصَيْته العالمي وشخصيته المتميزة وتواضعه مثار دهشة وإعجاب ومحل تقدير واحترام.
- حاول إرفينغ أن يصور نبينا الكريم –عليه الصلاة والسلام– على أنه رجل سياسي كبير، ورجل دولة مقتدر، أتاح له فكره ورؤيته الثاقبة أسباب التمكين، وقد ذكرنا سابقا كيف صور إجلاءه ليهود المدينة لدواع سياسية دنيوية، بوصفه حاكما ذكيا، لا لأسباب دينية، وكيف فسر نصر المسلمين في بدر الذي أرجعه إلى حسن التقدير والتدبير وإلى حنكة النبي محمد لا غير.
- صور إرفينغ الرسول–صلى الله عليه وسلم– بوصفه مثالا صارخا لدى المسلمين وهو معشوقهم ومعبودهم– وحسبه فإن هذا الحب الأعمى الذي يُكِنُّه المسلمون لنبيهم قد انعكس سلبا على كتّابهم ومؤرّخيهم، ممن أرخوا لسيرته وكتبوا عنه بنوع من الحب والغيرة والتعصب وأضافوا إليه من الخوارق وعلى أفعاله من العجائبية، ما

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 01 السنة: 2021 الصفحة: 866–917 تاريخ النشر: 27–06–2021

جعلهم يحولون بينه وبين الحقيقة، وبالتالي أساءوا إليه–حسب زعمه–أكثر مما أحسنوا إليه.

● صوّر إرفينغ النبي– صلى الله عليه وسلم– ودعواه امتدادا للدعوة التوحيدية والحنيفية التي جاء بها إبراهيم عليه السلام وبقيت سارية في أنبياء الله من ذرتيه إسحاق ويعقوب والأسباط وإسماعيل، ثم المسيح عليه السلام.حتى وصلت إلى نبينا محمد–صلى الله عليه وسلم– وبالتالي فالمهمة المنوطة بأنبياء الله هي تخليص العباد من الذنوب والخطايا وإرجاعهم إلى الفطرة السليمة وطريق الصواب، فإذا كان المسيح مخلّصا عند الغرب، فالنبي صلى الله عليه وسلم جاء مخلصا للعرب والمسلمين.

● حاول إرفينغ جاهدا أن يستقل برأيه في الحكم على الرسول محمد– صلى الله عليه وسلم– ويخالف إلى حد ما دأبت عليه المؤسسة الاستشراقية من خلال أعلامها ومفكريها ممن كتبوا عن نبينا الكريم وعن رسالته ودعوته، بنوع من التحامل والعصبية المقيتة، ممن اعتمدهم إرفينغ نفسه مثل: غوستاف فايل، وبوكوك، وبريدو وأضرابهم ممن غالوا في الحكم واشتطّوا في التقدير، ولا عجب فإرفينغ نفسه لم يكن مستشرقا ولا مفكرا بل كان أديبا حر الفكر، مستقل الفؤاد.

● كان واشنطن إرفينغ يفكر بحرية ويكتب وفقا لقناعاته وبأسلوبه المرن ويبني أحكامه مستقلة نابعة من رؤاه واستقراءاته، ورغم ذلك فقد خضعت بعض أحكامه لتأثير المصادر الغربية ورؤى المؤسسة الاستشراقية التي كتبت عن الإسلام ونبيه كما رأينا سابقا في قصة الإسراء والمعراج، وكيف ساق حشد غير مسبوق من الروايات العربية والإسلامية، واطلع على كثير من الآراء، وحقق في ذلك، وحاول أن يقف موقفا وسطا بين المنكرين والمثبتين لرحلته، وقال بحصول الرحلة الروحية دون الجسدية، ولا نلومه–

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 01 السنة: 2021 الصفحة: 866–917 تاريخ النشر: 27–06–2021

وهو صاحب الثقافة المغايرة– فقد قرأ ما وجده أصلا في سيرة ابن هشام وغيرها من المصادر من خلال حديث عائشة ومعاوية–رضي الله عنهما–

● سار إرفينغ مع بعض أطاريح الدارسين والمستشرقين الغربيين– وهو صاحب العقيدة النصرانية أصلا– في اعتبار أن الذبيح هو إسحاق وليس– إسماعيل عليهما السلام– وأن نبوة الرسول عليه الصلاة والسلام، هي من ضرب العبقرية ومحصلة من التأمل وطول تفكير وممارسة وتعبد وعزلة، وهي فكرة خطيرة ظهرت عند المنكرين للنبوة منذ القديم، وتهدف إلى تعطيل الرسالة السماوية، وإبطالها بطرق مهذبة، وبالتالي إبطال "العصمة" التي تميز الأنبياء وجعلهم مجرد بشر عاديين، كما ساير بعض الطروحات الغربية التي تدعي بأن نبوته عليه السلام إنما جاءت بعد تلاقيه مع اليهود والنصارى في صباه.

● لعبت مختلف التفسيرات والتأويلات المسيحية دورها في حكم إرفينغ على بعض معجزات الرسول–صلى الله عليه وسلم– التي حصلت قبل وفي فترة نبوته، حيث سايرها، فقد لاحظنا إنكاره لكثير من المعجزات مثل: خاتم النبوة الذي يراه مجرد وحمة كبيرة بحجم بيضة الحمامة[1]، والحمامة والعنكبوت والمخطوط، وأن السماء والأرض اهتزتا لقدومه[2]، وغيرها ولهذا فهو يعيب على المؤرخين المسلمين الذين يريدون إقناعنا بأن قدر محمد صلى الله عليه وسلم قد حدد يوم ولادته. لهذا فهو لا يرى للنبي معجزة سوى القرآن.

[1]– IRVING: Vie de Mahomet ,p30.

[2]– IBID, p27.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 01 السنة: 2021 الصفحة: 866–917 تاريخ النشر: 27–06–2021

● يرى إرفينغ النبي– صلى الله عليه وسلم– مجرد بشر يتميز بميزات تفوق كثيرا من أقرانه من البشر، وهي ميزات جسدية وروحية وقد أثرت البيئة والتربية وأسهمتا في تنشئته[1]، حتى صار مؤهلا لممارسة الرسالة السماوية.

● يُحيلنا عمل إرفينغ (محمد وخلفاؤه) إلى استشعار العلائق المبهمة بين أطراف الكنيسة نفسها (الكاثوليكية، البروتِستانية، الكنيسة الشرقية) في القرون الوسطى. فقد هاجم كثير من الإصلاحيين التيار الكنسي الأصولي – وللأسف– عن طريق استحضار شخصية النبي محمد صلى الله عليه وسلم، إما تلميحا أو تعريضا، وهنا ينبغي أن نشير إلى أنّ صناعة الصورة النبوية تختلف بين الكنيستين الشرقية والغربية، وقد رأينا المؤرخ بن العبري الذي كتب تاريخا في غاية الجودة والإتقان والموضوعية، وكان مصدرا مهما لإرفينغ في كتابه.

ويمكن أن نقول ختاما إن إرفينغ ومن خلال كتابه (محمد وخلفاؤه) قد استطاع أن ينهض بهذا العبء الجسيم، وهو التأريخ لسيرة سيد الأنام صلى الله عليه وسلم عن طريق مصادره الغربية والعربية والإسلامية وعن طريق تصوره للرسالة السماوية عن طريق مصادر أخرى، وهو عمل جليل قد صوّر الحقائق –كما نقلتها المصادر العربية– على الأقل في ظواهر نصوصها. وقد حاد عن الفهم السليم لبعض قضايا السيرة الجوهرية، ورغم ذلك فقد حاول أن يرسم صورة للنبي محمد – صلى الله عليه وسلم– وفق رؤية حيادية.

[1]– IBID, p37.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 01 السنة: 2021 الصفحة: 866–917 تاريخ النشر: 27–06–2021

ثبت المصادر والمراجع:

القرآن الكريم: برواية ورش.

- **المراجع العربية:**

1- إسماعيل باشا البغدادي: هدية العارفين في أسماء المؤلفين والمصنفين، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

2- البخاري: الصحيح، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط1، 1423هـ–2002م.

3- البيهقي: دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، وثق أصوله وخرج أحاديثه: عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1408هـ/1988م.

4- جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية، دار مكتبة الحياة، لبنان، 1992.

5- حاجي خليفة: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار إحياء التراث العربي، عن طبعة المعارف بإستنبول .

6- عبد الرحمن بدوي: موسوعة المستشرقين، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط3، 1993.

7- ابن سعد: الطبقات الكبير، تحقيق علي محمد عمر، مكتبة الخانجي، مصر، ط2، 1434هـ–2012.

8- السهيلي: الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق عبد الرحمن الوكيل، دار المكتبة الحديثة، دار الكتب الإسلامية، مصر، ط1، 1387هـ/1967م.

9- صاعد الأندلسي: طبقات الأمم، تحقيق: حسين مؤنس، دار المعارف، مصر، دت.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 01 السنة: 2021 الصفحة: 866–917 تاريخ النشر: 27–06–2021

10– الطاهر أحمد مكي: في الأدب المقارن، دراسات نظرية وتطبيقية، دار المعارف. مصر، ط3، 1997م.

11– الطحاوي: شرح العقيدة الطحاوية، حققه مجموعة من العلماء، وخرج أحاديثه: محمد ناصر الدين الألباني، المكتبة الإسلامية، بيروت، لبنان، ط8، 1404هـ– 1984م.

12– ابن العبري، أبو الفرج غريغوريوس: تاريخ مختصر الدول، حققه وصححه وفهرسه الأب: أنطوان صالحاني اليسوعي، دار الرائد اللبناني، بيروت، لبنان، ط3، 1994م–1415هـ.

13– علوي بن عبد القادر السقاف: تخريج أحاديث وآثار كتاب في ظلال القرآن لسيد قطب، دار الهجرة، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط2، 1416هـ– 1995م.

14– علي بن برهان الدين الحلبي: إنسان العيون في سيرة الأمين والمأمون، المطبعة الأزهرية، مصر 1351هـ–1932م.

15– غوستاف بفانمولر:

✓ الرسالة المحمدية في المؤلفات الغربية، ترجمة: محمود حمدي زقزوق، مجلة مركز بحوث السنة والسيرة، قطر، العدد الرابع، 1989م–1409هـ.

✓ سيرة الرسول في تصورات الغربيين، ترجمة محمود حمدي زقزوق، مجلة مركز بحوث السنة والسيرة، قطر، العدد الثاني، 1987م–1407هـ.

16– عبد الفتاح فتحي عبد الفتاح: التاريخ والمؤرخون في مصر والأندلس في القرن الرابع الهجري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2004م–1424هـ.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 01 السنة: 2021 الصفحة: 866–917 تاريخ النشر: 27–06–2021

17- أبو الفداء: تقويم البلدان، طبع بعناية رينود والبارون ديسلان، دار صادر، بيروت، لبنان، دت، عن طبعة باريس الأصلية.

18- فورستر وفوك: ثلاثة قرون من الأدب، ترجمة: جبرا إبراهيم جبرا وآخرون، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، مؤسسة فرانكلين للطباعة بنيويورك، بغداد، دت.

19- القاضي عياض: الشفا بتعريف حقوق المصطفى، حققه: عبده علي كوتشك، جائزة دبي، ط1، 1434هـ–2013م.

20- ابن كثير إسماعيل:

- ✓ تفسير ابن كثير، دار الأندلس، بيروت، لبنان، ط2، 1400هـ– 1980م.
- ✓ السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة، بيروت، لبنان، 1396هـ/1976م.

21- ابن ماجه القزويني: سنن ابن ماجة، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، دت.

22- المحبّي: خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، المطبعة الوهبية، مصر، 1284هـ.

23- مسلم النيسابوري: صحيح مسلم: تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العلمية، مصر، ط1، 1412هـ/1991م.

24- نجيب العقيقي: المستشرقون، دار المعارف، مصر، ط3، 1964.

25- ابن النديم: الفهرست، قابله على أصوله: أيمن فؤاد سيد، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن، 2009–1430هـ.

26- واشنطن إرفينغ:

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 35 العدد: 01 السنة: 2021 الصفحة: 866–917 تاريخ النشر: 27–06–2021

✓ سقوط غرناطة، آخر الممالك الإسلامية بالأندلس، ترجمة إسماعيل العربي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989م.

✓ محمد –صلى الله عليه وسلم – ترجمة ومقارنة: هاني يحيى نصري، هوامش ومقارنات بين إرفينغ وابن كثير وهيكل، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء بيروت ط1، 1999.

27– يحيى مراد: معجم أسماء المستشرقين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2004م–1425هـ.

• **المراجع الأجنبية:**

28- Jean Gagnier: La vie de Mahomet, traduite et compilée de l'alcoran, des traditions authentiques de la sonna, et des meilleurs auteurs arabes, a Amsterdam.

29- M.Prideaux: La vie de Mahomet, ou l'on découvre amplement la vérité de l'imposture, Amsterdam chez George Gallet. 1698 .

30- WASHINGTON IRVING: Mahomet and His Successors, with frontis piege, New York and, London, the co-operative publication society in- 9.1849.

31- WASHINGTON IRVING: Vie de Mahomet, traduit de l'anglais par: Henry Georges, Paris, librairie internationale, 1865.